الدكتور شوقي أبو خليل

بلاط الشهداء

بقيادة عبد الرحمن الغافقي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥,٠٣١
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٤٩١,٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-500-6
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-503-0
الرقم الموضوعي: ٩٣٠
الموضوع: تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان: بلاط الشهداء
التأليف: د. شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٨٠ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

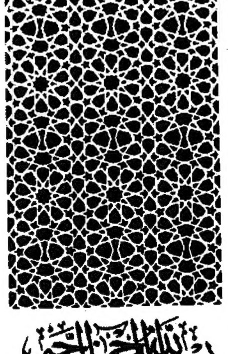
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com



إعادة

1418هـ = 1998 م

ط3 : 1980 م



بسم الله الرحمن الرحيم



بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي/ شوقي أبو خليل. -
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨. - ٧٨ص؛ ٢٠سم. - (المعارك الكبرى
في تاريخ الإسلام)
صدرت الطبعة الثالثة عام ١٩٨٠.
١- ٩٥٦,٠٧١ خ ل ي ب ٢- العنوان ٣- أبو خليل ٤- السلسلة
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٨/٢/٣٣٦

تصـــدير

✶ « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ، ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمـرات وبشر الصابرين الـذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليـــه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون »

البقرة : ١٥٤/١٥٧

بسم الله ، له الحمـــد والشكر وحده ، وصلى الله على من لا نبي بعـــده •

إن أول واضع لخطة الفتوحات الإسلامية في أوربة هـــو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، إذ ندب عبدالله بن سعد بن أبي سرح لفتح بلاد شمال افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جرجير والي « سبيطلة » من قبل البيزنطيين ، فندب عبد الله بن عبد القيس ، وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ، وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالمسير الى الأندلس ، وكتب لهما في ذلك ، تلك الوصية الرائعة التي يقول فيها : « إن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وإنكم إن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر[١] » •

وقد اتخذ ولاة شمال افريقية ، وقواد أجنادها هذه الوصية

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج : ١ ، ص : ٨٤ ، الكامل ، ج : ٣ ، ص : ٤٧ • الطبري ، ج : ٤ ، ص : ٢٥٣ •

نبراساً لسياستهم الإسلامية التي يسيرون عليها ، فهي تعني حصار القسطنطينية من البر الأوربي ، وتفيد في اضعاف المدد الممكن للقسطنطينية عند حصارها .

وأول أمير شرع في إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية ، الأمير حسان بن النعمان ، وذلك بعد أن دان له شمال افريقية بالطاعة ، فقد أنشأ بفناء قرطاجنة ــ في تونس ــ دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من سكان مصر ، وسار على منهاجه موسى بن نصير .

وكان بعدها أن اجتاز طارق بن زياد ــ بتكليف من ابن نصير ــ بجيوشه أرض العدوة الى الأندلس ، حيث فتحها الله له ، ووصل المسلمون إلى حدود فرنسة ، ثم عبروا الحدود فاتحين، وجرت معارك كثيرة ، كان أهمها « بلاط الشهداء » .

ولعل التاريخ الإسلامي كله لم يقدم إلينا حادثاً جللاً ، كان له من الخطورة والأهمية وبعد الأثر ، ماكان لموقعة بلاط الشهداء ، فلو لم يرد المسلمون في سهل « تور » لما كانت ثمة أوربة نصرانية، بل لعله مابقيت نصرانية على الاطلاق ، ولكان الإسلام يسود أوربة ، ولكانت أوربة الشمالية تموج اليوم بأبناء الشعوب السامية ذوي العيون الدعج ، والشعور السود ، بدلا من أبناء الشعوب الآرية ، ذوي الشعر الأشقر ، والعيون الزرقاء .

والمصادر العربية عن المعركة قليلة مقتضبة ، فلم يذكر الواقدي والبلاذري والطبري ... وهم من أقدم رواة الفتوح ، شيئاً عن المعركة ، ومن هنا جاءت صعوبة الكتابة عن بلاط الشهداء

وبطلها عبد الرحمن الغافقي • وابن الأثير لم يذكر في حوادث سنة ١١٣ هـ / ١١٤ هـ سوى تكرار رواية ابن عبد الحكم ، وهي مقتضبة أيضاً •

فالروايات العربية موجزة ، وهذا يدل على فداحة الخطب الذي أصاب الإسلام في سهل تور ، على عكس الرواياتالنصرانية التي تفيض في تفاصيل الموقعة ، وتشيد بظفر شارل مارتل — أو « قارلة » كما تسميه المراجع العربية — وترفع من بطولته ، وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين ، في تصوير نكبة المسلمين الى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين في الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، في حين أنه لم يقتل من الفرنجة سوى ألف وخمسمائة ، ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو الى البابا جريجوري الثاني يصف فيها حوادث الموقعة ، وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة وكأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها ، بيد أنها لم تكن سوى خرافة محضة •

ففي « بواتييه » لم يُسْحَق الجيش الإسلامي بالمعنى المفهوم للهزيمة الساحقة ، ولكنه كان ارتداداً ، بل انسحاباً منظماً من تلقاء نفسه ، فقد لبث يقاتل طوال المعركة الفاصلة حتى المساء ، محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ، والدليل على هذا القول ، رهبة الفرنجة من مطاردة المسلمين ، وحذرهم من اللحاق بهم عقب بواتييه ، وتوجسهم من كون انسحاب المسلمين خديعة حربية ، وخطّة مبيَّتة ، ولو أن الجيش الإسلامي انتهى

الى أنقاض ــ كما تصوره الرواية النصرانية الكنسية ــ لبادر الفرنجة إلى مطاردته والاجهاز عليه ، ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة الى حد يخيف العدو ويرده •

إن أفدح خسارة في بواتييه كانت استشهاد الغافقي ، لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع بهيبته وقوة إيمانه ، وشخصيته الملتزمة بإسلامه الصافي أن يجمع الإسلام في الأندلس ، فكان مقتله في هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الاسلام ، ولمشاريع الخلافة في افتتاح أوربة •

ــ استشهد عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء ، فكان الانسحاب الإسلامي •

ــ استشهد وهو يحاول رأب الصفوف التي تصدّعت عندما هاجم الفرنجة الغنائم التي كانت مكدّسة خلف الصفوف •

ومع هذا كله ، فإن على ذاكرة التاريخ أن لا تنسى أولئك الذين بذلوا وأظهروا كل ضروب الفداء والتضحية والصدق والاخلاص والبسالة والشجاعة ، ولكنهم أصبحوا قادة بلا جنود فهزموا ، أو جنوداً بلا قائد فآثروا الرجوع • وفي أغلب الأحيان ، فإن ذاكرة التاريخ تذكر بالفخر والاعجاب الأبطال الذين صنعوا الانتصارات ، وتجعلهم في مركز الصدارة ، ولذا فهي تخلّد الغافقي بطلاً عظيماً ، وإن لم يكن قد حقق النصر في بواتييه ، وذلك لما أبداه من الطموح والصدق في نشر الدعوة الإسلامية ، مع ثقته بنفسه وجيشه ، وحزمه في أموره ، ولكنه استشهد في المعركة الفاصلة وأصبح الجند بلا قائد •

ولو أنه انتصر في بلاط الشهداء لعسّت شهرته الخافقين ، ولأصبحت الدنيا منذ ذلك الحين مسلمة ، ويكفي الغافقي فخراً أنه بالاسلام ، وبالاسلام وحده ، أوصل جيوش المسلمين الى ضواحي باريس ، ويكفي الاسلام فخراً ، أنه أوصل العربية والعروبة الى قلب فرنسة ، فلولا الاسلام لبقيت قبائل العرب في جزيرتها - ولا ندري الى متى ! - تحت وصاية الفرس والرومان.

والحقيقة التي لا جدال فيها .. انه في سهول «تور - بواتييه» فَقَدَ المسلمون سيادة العالم بأسره ، وتغيَّرت مصاير العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الاسلامي أمام الأمم الشمالية ، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، وإخضاع أوربة لصولة الاسلام .

لأمر أراده الله ، لم ينتصر المسلمون في بلاط الشهداء « بواتييه » في القرن الثامن الميلادي ، إنها مشيئته جل شأنه ، ليثبت للدنيا بأسرها أن الإسلام قوته ذاتية ، كامنة فيه ، وسيعم نوره أوربة فيما بعد بواتييه بقرون ، فها هو اليوم « الدين الزاحف » على عواصم الغرب في القرن العشرين ، وبشائره تجعل النتائج المتوقعة محققة .

نجد المسلمين من أبناء أوربة دعاة إسلام ، والمنارات تتعالى بالله أكبر في عواصم ومدن الغرب ، ليشهد العالم أن الإسلام ينتشر بلا سيف ، لأنه الأمل المنشود ، فيه التوازن الرائع بين الدين والدنيا ، والروح والمادة ، والعقل والقلب .

لقد وعى برناردشو حاجة أوربة الى هذه المعاني ، فقال : ما أحوج العالم الى رجل مثل محمد ليحل مشكلاته ••• ولن ينقضي هذا القرن العشرون إلا وأوربة يعمها الاسلام •

في فرنسة وحدها اليوم أربعـة ملايين مسلم من أبنائهـا الأصليين ، غير الجاليات الإسلامية ، وهذا الرقم يتضاعف لزيادة الدعاة من الذين أسلموا •

وفي أمريكا اليوم ملايين المسلمين ، وهذا العالم الأمريكي : « Michal H. Hart » يجمع أعظم شخصيات العالم ، منذ بـدء العصور التاريخية ، وحتى عصرنا الحالي ، وينتقي منها مئة شخصية فقط ، لها أثرها العالمي في شتى مجالات الحياة ، ويرتبها في كتابه : « المئـة : The 100 » بحسب أهميتها وأثرها في البشرية ، فكان سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الشخصية الأولى في الكتاب « فهو الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بتفوق على الصعيدين الديني والمدني » وهذا مصداق لقوله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، معرفاً بقيمة ما جاء به من عند الله سبحانه •

يقول عز وجل في محكم التنزيل : « ليظهره على الدين كله » وهذه الآية الكريمة لم نشهد بعد تحقق معناها الشامل ، ونرى اليوم بوادر شمولها، ولا بد وأن يشهد جيلنا ذلك، ولو بعد حين•

فإلى الجزء السادس من هذه السلسلة ، إلى بلاط الشهداء وأحداثها ، والدرس المستفاد منها ، على بركة الله •

شوقي أبو خليل

ص•ب : ٦٢٢٢

دمشق ـ سورية

المسلمون في فرنسة

★ « استتباب الفتح في الاندلس ، مهد لنقل ميدان الجهاد وراء جبال البرانس » .

فتح المسلمون الأندلس فتح استقرار وإقامة ، فطبعت معالمها بالحضارة العربية الإسلامية ، وفكّر موسى بن نصير في عبور جبال البرانس[1] ، لبسط السيادة الإسلامية على فرنسة ، ومن ثمّ الاتجاه شرقاً لفتح القسطنطينية ، معقل الروم ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي من هذه المغامرة ، إذ لم يحدث تاريخياً ، أن جيشاً قد اخترق أوربة من الأندلس حتى شواطىء البحر الأسود دفعة واحدة ، فاستدعى الوليد موسى وطارقاً .

ولما كانت ولاية السمح بن مالك الخولاني[2] عام ١٠٠ هـ ، الذي يشبّه بعمر بن عبد العزيز في إسلامه وتقواه وخلقه ، والذي وصفه ابن الأثير بأنه من أفاضل عرب افريقية ، ومن خيرة الولاة

---

(١) أو جبال البرينيه ، وفي العربية البرت أو البرتات أو البرانس Pyrenees ، أي « الابواب » ، ومن ثم فقد سميت أيضاً جبال الابواب ، ويقال لها « الحاجز » .

(٢) اختاره عمر بن عبد العزيز : « لمعرفته هذه الشخصية التقية النقية المجاهدة الباسلة المتلئة ايمانا وحماسة ورغبة للعمل الخير والجهاد الفاتح ، وأحسن الخليفة ابن عبد العزيز الاختيار » فحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق .. التاريخ الاندلسي ص : ١٨٩ .

الذين تولوا أمر الأندلس ، وعاد الحماس الى الجند الإسلامي لمعاودة الغزو في غاليا[1] ، فنقل مركز الخلافة إلى قرطبة[2] ، لاعادة التنظيم الاداري ، ولتأمين الجبهة الداخلية ، استعداداً للفتح خلف جبال البرانس •

سار السمح إلى أرض غاليا ، وفتح اقليم سبتمانيا[3] ، واتخذ أربونة[4] قاعدة لعملياته الحربية في فرنسة ، فأعاد ترميم الحصون، ودعَّمها بجندٍ مسلمين ، وتتبَّع مجرى نهر الجارون ، واتجه غرباً حتى وصل طولوشة عاصمة اكويتانيا ، التي قاومت حتى وصلتها الامدادات ، وأخذ السمح يشد من أزر جنده المسلمين ، ويتلو عليهم بروح مؤمنة مستنيرة صادقة ، قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » •

ولكن السمح أصيب بطعنة عميقة بالغة في المعركة التي دارت على أسوار طولوشة عام ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، ففت ذلك من عضد الجند المسلمين ، فارتدوا جنوباً عن طولوشة ، التي تعتبر أول نكسة للمسلمين في أرض غاليا « فرنسة » •

---

(١) غاليا ، أو غالة ، أو الارض الكبيرة تعني فرنسة حاليا •

(٢) كانت العاصمة طليطلة ، ثم أصبحت اشبيلية زمن عبد العزيز بن موسى ، ونقلها السمح الى قرطبة ، التي استمرت عاصمة الاندلس حتى نهاية الدولة الاموية في الاندلس •

(٣) سبتمانيا : منطقة ساحلية من البرانس غربا الى مصب نهر الرون شرقا ، واسمها اليوم « الرفييرا » ، وهي تطل على البحر المتوسط جنوبي فرنسة ، عاصمتها أربونة •

(٤) الى اليوم في المدينة شارع يحمل اسم « السمح » •

وسقط السمح شهيداً ، وانسحب المسلمون بعد أن فقدوا قائدهم المغوار البطل ، وكان عبد الرحمن الغافقي أحد جنود السمح في المعركة ، فأجمع الجيش المسلم على اختياره للقيادة ، ورأى من الحنكة أن يرتد الى الجنوب ، ولكن حزنه الأليم على مصرع السمح ، واستشهاد رفاقه جعله يفكر جدياً في الانتقام لمصارع الأبطال ، واستئناف الغزو والهجوم ، وكانت تلك ولاية عبد الرحمن الأولى ، التي لم تدم إلا بضعة أشهر •

عين عامل افريقية يزيد بن أبي مسلم عنبسة بن سحيم الكلبي عام ١٠٣ هـ/٧٢١ م أميراً على الأندلس • فقضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من إمارته في تنظيم أمور الأندلس وتهدئتها ، وانهاء الخلافات العصبية ، ثم واصل حروبه في غاليا ، وسار على الساحل حتى وصل نهر الرون ، بعد أن مرّ من مدن : أربونة ، ومونبلييه، ونيمة ، وأبنيون ، وفي وادي الرون فتح مدن : فالنس ، فيني ، ليون ، شالون ، حيث سار قسم من الجيش شمالا باتجاه ديجون، ولانجر ، وقسم باتجاه أوتون ، ووصل مدينة سانس •

اكتسح المسلمون بقيادة عنبسة حوض الرون ، بزحف ظافر علق عليه مؤرخون معاصرون له ، بأن الله قذف في قلوب الكفار الرعب ، فلم يتصدّ أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الأمان[1] •

فتح المسلمون المناطق الفرنسية الجنوبية والشرقية ، ولم يجدوا مقاومة إلا في مدينة سانس ـ الواقعة على بعد ثلاثين

---

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٠٥ ، عن : غزوات العرب لارسلان •

كيلو مترا فقط جنوبي باريس ـ والتي كانت عاصمة اقليم يوند ، وفيها تصدى إيبون أسقف المدينة للزحف الإسلامي ، وكان قد استعد له من قبل ، فحصن المدينة ، وحشد مواطنيه ، فهبوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا في ايقاف الزحف الإسلامي[1] .

أدرك عنبسة بعد هذا الزحف المظفر ، الـذي أوصله الى ضواحي باريس ، أنه توغل أكثر مما ينبغي ، فخشي أن يقطعُ العدو خطوط تموينه ، أو طريق عودته ، وبخاصة أنه سمع بانبعـاث العصبية في الأندلس من جديد ، ووقع خلاف فيما بين العرب والبربر .

وهذا الذي شعر به عنبسة ، كان حدساً صحيحاً ، فبينما كان في طريق عودته داهمته جموع كبيرة من الفرنجة ، فالتحم معهم ، وأصيب بجراح بالغة في شعبان ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م ، استشهد على أثرها ، فعادت بقية الجيش بقيادة عذرة بن عبد الله الفهري إلى أربونة .

« ينبغي أن نلاحظ أن حملة عنبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عنبسة على نية الفتح الثابت ، لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم ، وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عقبة الكبرى ، غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً ، وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها ...

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٤٧ ، أرسلان « غزوات العرب » ، ص : ٧٩ ـ ٨٠ .

ومهما يكن من الأمر فان عنبسة بن سحيم الكلبي ينفـرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الاسلام الى قلب أوربة الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر »[1] .

خلف عذرة الفهري عنبسة في حكم الأندلس ، وبقي من شوال ١٠٧ هـ ، وحتى ربيع الاول ١١٠ هـ ، فواصل حروبه في فرنسة ، فاقتحم سبتمانية مرة أخرى ، ودخل حوض الرون .

ومما يذكر أن المسلمين في هـذه الفتوح ، أو السرايا ، ما تعرضوا الى كنيسة أو دير ، غير أن المراجع النصرانية الأوربية أطلقت العنان لخيالها ، فكلما وجدت ديراً قد احترق ، أو كنيسة تخربت في هذه الفترة من الزمن ، نسبت ذلك الى المسلمين ، مع العلم أن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصـارى بعضهم مع بعض في هذه الجهات من غاليا على وجه الخصوص .

من المؤرخين الأوربيين الـذي اتهموا المسلمين بالتخريب والاحراق المؤرخ « رينو » ، مع أنه يعلم أن « كلوفس » أنزل بالكنائس والأديرة في جنوبي غاليا وفي بورجونيا ، وفي أقطانية من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف ، وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم هم في غاراتهم في غاليا إلا تخريب الكنائس والأديرة واشعال النار في المدن، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وافريقية والأندلس ، وهي كلها غاصة بالكنائس والأديرة ، وما إليها مـن

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٤٨ .

المؤسسات النصرانية ، فلم يحرقوا . ولم يخربوا ، فمن عجب أن ينقلب حالهم إذا عبروا الى غاليا ، فيتحولوا الى برابرة مخربين لا يكادون يبقون على شيء[1] !!

ويعلق الدكتور حسين مؤنس في فجر الاندلس على ماسبق قائلاً : « الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول ، فليس من الجد في شيء أن يقال إن العرب لم يفعلوا في غاليا غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديراً ، وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غاليا في ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين ، وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم ، لتبينا أن المسلمين كانوا أعظم حضارة ، وأبعد عن النهب والتخريب ، ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر ، فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غاليا خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي ، رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك ، أو عنبسة بن سحيم ، أو عبد الرحمن الغافقي » .

المسلمون على عكس الوندال الذين سبقوهم ، وبعكس شارل مارتل « قارلة » وبيبن وشارلمان فيما بعد ، فهؤلاء هم الذين

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٥٨ . ويرى د. عمر فروخ في : « العرب والاسلام في الحوضين » ص : ١٣٣ : « إن عددا من الكنائس والاديرة ـ وخصوصا تلك التي كانت مبنية خارج أسوار المدن ككنيسة مدينة « تور » مثلا ـ كانت في الحقيقة قلاعا وحصونا ، وكان الفرنجة يقاتلون العرب من ورائها ، فليس بدعا اذن اذا هدمها العرب في أثناء المعارك » .

نهبوا الكنائس ، واستولوا على كنوزها وخربوها بعد معركة بلاط الشهداء !

★ وصل عبد الرحمن الغافقي الى ولاية الأندلس ثانية ، وموقعة طولوشة تترك أثراً عميقا في نفسه ، وأخذ منها درساً كبيراً، هو الحيطة والحذر ، كما أشعلت الحماس في قلبه للثأر لما أصاب المسلمين من هزيمة .

استعد الغافقي استعداداً كبيراً لغزو فرنسة ، وأعلن الدعوة للجهاد في سبيل الله ، وأعلن هذه الدعوة في افريقية ، كما أعلنها في الأندلس ، فتدفق عليه المتطوعون من كل ناحية ، وتجمع لديه عدد ضخم من المجاهدين ، بلغ مابين سبعين الى مائة ألف رجل ، وبدأ تحركه بعبور جبال البرت في أوائل سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م[١] .

وفي غاليا استعد دوق اكويتانيا ، واسمه « أودو » للقاء المسلمين ، وهو الذي دأب على حماية دوقيته بشتى الوسائل ، وأهمها إثارة الخلاف بين المسلمين عربا وبربر في الأندلس .

ورأى عبد الرحمن الغافقي أن يطهر الجبهة الداخلية قبل أن يشتبك مع أعداء الاسلام في موقف حاسم ، فبعث بكتيبة من جنوده الى عثمان بن أبي نسعة ، بقيادة ابن زيان ، فهرب ابن أبي نسعة مع أنصاره الى الجبال ، فتتبعه ابن زيان وقضى عليه وعلى ثورته[٢] .

---

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٠٨ .

(٢) سنناقش « خرافة مونوسة » في خاتمة هذا الكتاب ، كما وردت في الكتب المعتمدة ، ونفند ما نسج حولها من قصص خيالية غرامية .. وأن لا علاقة لها بأحداث ابن أبي نسعة .

جمع عبد الرحمن الغافقي المجاهدين في مدينة بنبلونة ، وخرج باحتفال مهيب ليعبر جبال البرانس في أوائل صيف عام ٧٣٣ م من ممرات رونسفال ، واتجه شرقا في جنوبي غاليا ، ليضلل الفرنجة عن وجهته الحقيقية ، فأخضع مدينة أرل التي خرجت على طاعة المسلمين ، ثم اتجه الى دوقية أقطانيا ، فانتصر على الدوق أودو انتصارا حاسما ، وتقهقر الدوق من عاصمته بُرْدال ، ومضى الغافقي في طريقه متتبعاً مجرى نهر الجارون ففتح بردال ، واندفع شمالاً في السهل المتسع الذي يحده شمالا نهر اللوار ، وجنوبا نهر الجارون ، ووصل الى مدينة بواتييه .

أصبح عجز الدوق أودو واضحا في مواجهة المسلمين ، فاستصرخ « شارل مارتل ، قارلة » حاجب قصر الميروفنجيين ، وكان صاحب الأمر والنهي في دولة الفرنجة .

لبى شارل النداء ، وكان قبلها لا يحفل بحركات المسلمين في جنوب فرنسة ، بسبب الخلاف الذي بينه وبين دوق أقطانيا الذي كان سببه طمع شارل بالدوقية ، وبذلك توحدت قوى النصرانية في غاليا للوقوف في وجه المسلمين ، ورحب شارل بالفرصة ليبسط نفوذه على أقطانيا وأراضيها الواسعة ، بعد أن شعر بالخطر الإسلامي ، حين غزا المسلمون بورجونيا ، وهي داخلة في بلاده ، وصعدوا حتى قاربوا اللوار[١] .

اجتمعت الفرنجة الى شارل مارتل ، وقالت له : ماهذا الخزي

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٧ .

الباقي في الأعقاب !؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم مافيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم ، وكونهم لا دروع لهم • فأجابهم :

« الرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل مايصادفه وهم في اقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرئاسة ، ويستعين بعضهم على بعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر •• » •

قال المقري : فكان والله كذلك ، بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين[1] ، والبربر والعرب ، والمضريَّة واليمنية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء[2] •

وأنهى شارل حروبه مع السكسون والبافاريين ، وتنبه لفتوح المسلمين الذين اجتاحوا معظم أقطانيا ، وأدرك أنهم لن يقفوا عند حد اخضاع أقطانيا •

* * *

(١) المقصود بالبلديين : العرب القدماء الذين جاؤوا من الحجاز ، وأسهموا في الفتح الاول ، واستقروا في جنوب اسبانيا ، وعرفوا بالبلديين تمييزا لهم عن الهجرات التي طرأت على الاندلس بعد ذلك •

(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ١٢٩ •

قائد بلاط الشهداء
عبد الرّحمن الغافقي

★ قائد رشحه إيمانه وامكاناته القيادية، وعبقريته الحربية للقيادة ، ولكن الظروف لم تتكافأ مع عبقريته العسكرية .

★ أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي ، نسبة الى غافق ، وهي قبيلة من الأزد ، وقيل : بل هو غافق بن الحارث بن عك[1] بن الحارث بن عدنان .

تابعي من أفذاذ الرجال ، جمع الى الشجاعة والاقدام العدل في الأحكام ، والسهر على مصالح العباد ، وبعد النظر في السياسة، ويذكر ابن بشكوال أنه روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

أخباره قليلة جداً ، لا تتناسب مع الدور الكبير الذي قام به في تاريخنا الإسلامي ، ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء ، التي ختمت حياة الغافقي ، كانت أليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة ، وأصاب الايجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة اليه ، مع عظيم تقديرهم له[2] .

رحل الى افريقية ، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك

---

(١) عرف بالعكي نسبة الى بني عك ، وغافق بطن منهم .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٦١ ، الاعلام ، ج : ٤ ، ص : ٨٤ ـ ٨٥ ، وتاريخ غزوات العرب لارسلان .

ـ الخليفة الأموي ـ بدمشق ، وعاد الى المغرب ، فاتصل بموسى ابن نصير وولده عبد العزيز ، أيام اقامتهما في الأندلس •

ظهرت براعته في انقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة ، عقب مقتل السمح بن مالك الخولاني في طولوشة ، وتولى على أثر معركة طولوشة « تولوز » سنة ١٠٢ هـ ، فانتقل الى أربونة ، فانتخبه المسلمون أميراً عليها ، وأقره عامل افريقية[١] ، ولما نشأ خلاف بينه وبين عنبسة بن سحيم ، عزل عبد الرحمن ، وولي عنبسة مكانه • فصبر عبد الرحمن مدة يغزو مع الغزاة ، الى أن ولاه هشام بن عبد الملك إمارة الاندلس سنة : ١١٢ هـ ، فطاف أقاليم الأندلس ، ينظر في مظالم الناس ، ويقتص من القوي للضعيف ، ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ، ويستبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة ، متأهبا لفتح بلاد الغال أو غاليا : Gallia — Gaule ، والتي عرفت عند المسلمين باسم : « الأرض الكبيرة » ، وهي فرنسة حاليا •

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وافريقية الى مناصرته ، فأقبلت عليه الجموع المؤمنة المجاهدة ، فازدحمت بهم قرطبة قاعدة الأندلس أيام عبد الرحمن[٢] •

جمع القلوب ، وساد الوئام في جيشه ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً بعد فتن ، فقد كان عادلا حليماً نقياً ، رحب به جميع سكان الأندلس ، حاكما بارعا ظهرت مواهبه الحربية في

---

(١) عامل افريقية كان يعينه الخليفة ، ويعين هو عادة والي الاندلس •

(٢) وهو الذي بنى قنطرة قرطبة المشهورة في سعتها وعظمتها وابراجها •

غزوات غاليا ، حكيماً قديراً في شؤون الحكم والادارة مصلحاً مستنيراً ، يضطرم رغبة في الاصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس ، وأقدرهم جميعاً .

رحبت الأندلس قاطبة بتعيين عبد الرحمن واليا عليها ، فعامل المسلمين والمسيحيين على السواء كما أمر الإسلام من التسامح وحفظ الأموال والأعراض ، ولم يخرج قط في معاملة المسيحيين عن العهود والعقود معهم .

وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وكان يمرن المجاهدين على استعمال السلاح ، ويثير فيهم نخوة القتال ، وجمعت هيبته كل القبائل ، لأنه كان سليما من النزعة العصبية التي ابتلي بها غيره ، ومن دلائل ذلك ، أن عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل افريقية ، المتعصب لقيسيته ، أقامه على الاندلس وهو يمني من غافق ، لذلك ساد الوئام في الادارة والجيش ، وعني باصلاح الجيش ، وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً جديدة مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة مؤمنة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية .

وصف الحميدي عبد الرحمن بالصلاح ، والسيرة الحميدة ، والعدل وحبه الشديد للجهاد في سبيل الله[1] ، وتحدثت المصادر الأوربية النصرانية عن شجاعته النادرة ، ومقدرته الحربية العظيمة.

وأورد ابن عبد الحكم رواية تدل على أن عبد الرحمن كان

---

(١) جذوة المقتبس ، ص : ٢٧٤ .

مسلماً سليم الإيمان ، حريصاً على أصول الشريعة ، لا يحفل في سبيل ذلك بغضب من بيدهم الأمر ، يقول ابن عبد الحكم بعـد الكلام عن إحدى غزواته ، وكان فيما أصاب عبد الرحمن رجلا مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل افريقية ، فغضب غضبا شديدا، وكتب الى عبد الرحمن كتاباً يتوعده فيه ، فكتب اليه عبد الرحمن مجيباً : « إن السموات والأرض لو كانتا رتقـاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجا[1] » .

رضي الله عن عبد الرحمن وأرضاه ، لئن كان عنبسة من طراز عقبة بن نافع ، تستهويه الغارات البعيدة المدى ، والضربات المدوية، فإن عبد الرحمن من طراز حسان بن النعمان ، وطارق بن زياد ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، « فيعمدون الى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها ، لكي يتـم الفتح ، وتدخل البلاد في حوزة الاسلام[2] » .

ورحم الله شهيد بلاط الشهداء ، شهيد بواتييه ، رحم الله الأمير عبد الرحمن الذي رشحه إيمانه وامكاناته القيادية ، وعبقريته الحربية الى الامارة ، ولم يرشحه نسب أو حسب ، ولكن الظروف لم تتكافأ مع تلك العبقرية ، وستبقى سيرته ، وسيبقى ذكره في الخالدين ، مع الذين صدقوا ماعاهدوا عليه الله .

---

(١) فتوح البلدان ، ص : ١١٧ ، وفي « الكامل في التاريخ » ، ج : ٤ ، ص: ٢١٥ .
(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٣ .

المسلمون قبيل المعركة

★ المسلمون في جهادهم لهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع .

فكر عبد الرحمن الغافقي ، وخاف من لهو جنده بالغنائم الكثيرة ، التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وفكر جدياً في حملهم على تركها في أرضها ، لئلا تشغلهم عن القتال ، فتكون وبالا عليهم ، لكنه لم يشأ وهو في مأزق كذلك المأزق أن يغيظهم ويخسر بذلك توحد قلوبهم ، وبقي واثقا بشجاعتهم وبيمن نقيبته في القتال .

لقد رأى عبد الرحمن وأولو الحزم من زملائه ، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند ، واستسلموا لرأي المستهترين ، واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر[١] .

والحق أنه عندما وقف المسلمون في وجه الفرنجة ، لم يكن سكان أوربة يتمنون خسارة المسلمين وهزيمتهم ، لقد تمنى قسم كبير من سكان غاليا انتصار المسلمين ، بعدما سمعوا بتحسن حال الإسبان بعد دخولهم في حوزة المسلمين الفاتحين ، حيث انتقلوا من

---

(١) مواقف حاسمة ، ص : ٦٣ . لعل الغافقي سمح بنقل الغنائم مع الجيش ، عسى أن يكون ذلك حافزاً له للدفاع عنها ، بعد أن صارت كثيرة ، يستقتل أصحابها في سبيل الحفاظ عليها ، ولكن الجند أخطؤوا عندما دافعوا عنها وحرصوا عليها ، اكثر من دفاعهم عن النصر وحرصهم عليه .

الرق والضرائب المالية الباهظة ، الى الحرية والعدالة والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ..

★ موازين القوى :

١ ــ عدد جيش الفرنجة أكبر من جيش المسلمين : فبينما كان الفرنجة سيلا من الجند المتدفق ، لم يكن الجيش المسلم يزيد عن سبعين ألف مسلم في أصح الروايات ، وقد يصل الى مائة ألف في روايات أخرى ، كان جلهم من البربر ، لأن كثيرين من عرب افريقية والأندلس ، كانوا إذ ذاك في شغل بما انصرفوا اليه مــن المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار في القرى والاشتغال بالزرع من ناحية أخرى ، وهذا لا يعني عدم وجود أعداد مــن العرب مع الغافقي ، فقد كان معه معظم اليمنيين لأنه يمني ، ولأن غالبية سكان نواحي اقليم سرقسطة كانوا يمنية ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين في ناحية جبال البرانس وماپليها[1] .

٢ ــ موقف الفرنجة الاستراتيجي أجود وأفضل ، وبخاصة معرفتهم للمواقع ، وألفتهم للتحرك فيها ، ومعرفة دروب المنطقة ، مع قدرة على القتال في جو شات مطير ، تعودته جسومهم ، وأرض موحلة ألفتها خيولهم .

٣ ــ الفرنجة مددهم ــ البشري والتمويني ــ قريب ، بينما المسلمون على بعد يجاوز ألف كيلو متر عن عاصمة الأندلس ، كما أنهم بعيدون مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الأمويــة ، ويكفي أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق وجبال البرانس ونهر اللوار ، ليعلم أن الجيوش الاسلاميــة المحاربة في نواحي غاليا كانت تقوم في الواقع بمغامرة أقــرب الى قصص

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٢ .

الاساطير منها الى حوادث التاريخ ، لأنها كانت في وضع لا تستطيع معه أن تحصل على امدادات من الجند ، أو العتاد من مركز الخلافة . ولا من عامل الأندلس في قرطبة ، لأن عدداً عظيماً من عرب الأندلس لم يستقروا في العاصمة ، بل تفرقوا في نواحي الاندلس ، وعمل بعضهم بالزراعة ، فكان الوالي لا يستطيع استقدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصبيات التي حاربها الإسلام قد توزعتهم ، وفرقت بينهم ، فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة إلا من بني عصبيته[1] .

ومع أن النقطة الأخيرة لم يكن لها أثرها الكبير في تكوين جيش الغافقي ، لأن الغافقي كان محبوباً لبعده عن هذه العصبية ، بسبب إيمانه وفهمه السليم لمبادىء الدين الحنيف ، غير أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق الجيش ، واختلف فيما بينه اختلافاً كبيراً ، أدى الى انسحاب المسلمين جملة ، ولو أنهم كانوا يداً واحدة لارتدوا بعد استشهاد قائدهم الى أقرب مركز لهم ، ليستجمعوا قواتهم ، ويضموا صفوفهم من جديد ، كما فعلوا بعد الهزائم التي جرت عليهم في افريقية .

٤ ـ الغنائم التي حملها الجيش الاسلامي :

بالغت المراجع النصرانية في وصف أعمال السلب والنهب التي قام بها المسلمون ، ولكن الحكم المنطقي السليم ، أن المسلمين حملوا بعض الغنائم ، ولو أحسنوا لبعثوا نفرا منهم ليودعها « أربونة » أو « برشلونة » ، حتى يطمئنوا عليها ، وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، وينتهي اشتغال فكرهم بها ، ولكنهم حرصوا عليها

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٨ - ٢٦٩ .

أكثر من حرصهم على النصر ، وانقلبت الغنائم الى ثقل يرهقهم ، أضعف حركتهم ، فكانت الغنائم سبب هزيمتهم ، لأن عـدوهم ــ وقد استشعر هذا الحرص منهم ــ عرف كيف يستغله لصالحه، فكان السبب القريب المباشر للهزيمة .

ورفض أحـد المؤرخين المعاصرين ، بدافع من غيرته على الاسلام ، أن يجعل الغنائم سبب الهزيمة المباشر ، وقال : كيف يحمل الجيش الاسلامي هذه الغنائم الثقيلة المعوقة ، وهو أمر لم نألفه منه في حملاته السابقة في الارض الكبيرة ، وهو يعلم مقدماً أنه ذاهب للقاء حاسم يبتغي فيه نشر الاسلام وإعلاء كلمة الله في تلك البقاع ، ولو حدث اجتماع مثل هذه الغنائم لأودعها مدنا سبق له فتحها ، فكيف يجتمع ذلك له وقد مر في فتوحه ــ قبل هذه الحملة ــ في أراضٍ فقيرة وأهلها معدمون ، في حين لم نسمع أو نألف له ذلك الاهتمام والاسلوب في عمليات جهـاده ــ وهي كثيرة ــ في الأرض الكبيرة قبل الغافقي[1] ؟

ونحنْ نرى أن الخطأ أو الخلل إن وقـع يجب أن يُذْكر كما هو للعظة والعبرة ، فخلل بلاط الشهداء هو خلل أُحُد يتكرر في سهول « تور ــ بواتييه » ، وهل يجرؤ مؤرخ أن ينفي مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ ، ونزولهم لجمع الغنائم في أُحُد ؟

أما مرورهم في أراض فقيرة الثروة ، وأهلها معدمون نتيجة لفقر أرضهم ، فهذا خطأ جغرافي ، فجنوب فرنسـة من الأراضي الخصبة ، خصوصاً على ضفاف نهر الكارون وفروع نهر الوار ، ومعروف أن مدن المنطقة غنية بنفائسها !.

---

(١) التاريخ الاندلسي ، ص : ١٩٨ ــ ١٩٩ .

الفرنجة و شارل مارتل

✱ جنود اجلاف يحاربون شبه عراة ، يتشحون بجلود الحيوانات المفترسة ، يرسمون للوحشية البدائية صورا مزعجة حمراء .

الفرنجة : شعبة من أولئك البربر الذين غزوا روما، وتقاسموا تراثها ، وحلوا في ألمانيا وفرنسة . وتعني كلمة « الفرنجة » الحر، وربما كان هذا الوصف يدل على الأقوام التي كانت تنزع الى الاستقلال عن سلطة روما ، والخروج عن طاعتها .

حكم منهم البيت الميروفنجي من سنه : « ٤٨١ م وحتى ٧١٦ م » ، وكان الحكام الميروفنجيون في آخر حياتهم كما وصفهم المؤرخ أينهارت : إنــه لم يكن للملك شيء في المملكة ســوى اسمه ، وذوائب شعره المرخاة ، ولحيته الطويلة ، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه ، أخذ يلهو بادارة شؤون الدولة لهــو الصبية ، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف الممالك ، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوه بها صاغرا مأمورا ، ولم يكن للملك ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة فيها مسكنه الضئيل حجمه ، وحاشيته القليل عددها ، فاذا اقتضى الأمر سفرا ، ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف ، تجرها الأبقار،ويسوقها فلاح من الفلاحين ، وإذا جاء الى القصر ، أو ذهب الى الاجتماع السنوي العام ، سار موكبه في هذه الهيئة ، على حين أصبح رئيس البلاط مسيطراً في شؤون الادارة والحكم ، مهيمناً على جميــع المسائل السياسية الداخلية منها والخارجية[1] .

(١) تاريخ أوربة العصر الوسطى ، تاليف : هـ٠أ٠ل فيشر ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ، صفحة : ٧٠ .

لقد أحجم الفرنجة عن التخلص من البيت الميروفنجي ، لظنهم أنهم مقدسون ، ولا جناح عليهم مما ينغمسون فيه من المنكرات ، فهم منحدرون من ميروفيوس ، الذي يرجع أصله الى إله البحر العظيم ، حسبما ورد في أغاني الفرنجة القديمة !! إن حالة من القدسية حاطت تلك الأسرة الفرنجية زمنا طويلا قبل ظهور المسيحية بينهم .

ثم بدت في الأفق الأسرة الجرمانية الكارولنجية ، وموطنها « استراسيا » ـ بلجيكا حاليا ـ ، وأهم شخصيات هذه الأسرة « ببين » و « دوق أرنوف » ، ثم ما لبث ببين أن أصبح رئيساً للبلاط ، أو محافظ القصر، سنة ٦٢٢م، فزوج ابنته لابن أرنولف، فكان من نتيجة المصاهرة : « ببين الثاني »[1] ، الذي تولى رياسة البلاط في اوستراسيا « بلجيكا » سنة ٦٨١ م ، وهذا هو أبو شارل مارتل أو « قارلة » والجد الأكبر للامبراطور شارلمان ، وشارل هذا اتخذه الألمان والفرنسيون بطلاً قومياً ، دون أن يكون في الحقيقة ألمانياً أو فرنسياً ، فهو أوستراسي جرماني لحما ودما .

انزعجت أوربة انزعاجاً صارخاً لتقدم الجيوش الاسلامية ، وفزع زعماء المسيحية ، فأرسلوا صيحاتهم الصليبية في آفاق أوربة، وبذلوا أقصى ما يقدرون عليه لإشعال نار الكراهية للاسلام ، وتأكيد العداوة لرجاله ، وكان ملك الفرنجة ضعيفاً عاجزاً كما أسلفنا ، بينما يتولى حاجب القصر « شارل مارتل ، أو قارلة » قيادة أموره،فتجمع حوله الصليبيون،وقدموه قائدا للنصرانية[2] .

---

(١) بيجا ابنة ببين تزوجت انسجيزول ، فكان ببين الثاني أبو قارلة ، شارل مارتل .

(٢) « مع الابطال » ، د. محمد رجب بيومي ، ص : ٨٩ .

وشارل مارتل هـذا ، أو شارل المطرقة ، أو قارلة ، تولى الحكم من دون الملوك الميروفنجيين ستا وعشرين سنة ، ونال لقب المطرقة لشدة ما أنزل بالكنيسة الكاثوليكية في غاليا من صارم الضربات التي استلزمها فساد رجال الدين في عصره ، على أن بعض السر فيما استقام له من الفتوح ، إنما يرجع الى جنوده الفارعين من الاوستراسيين الذين لم تفسدهم حياة المدن •

ولما بلغ شارل مارتل نبأ قدوم الجيش الاسلامي اتخـذ الأهبة ، فلما قدم أودو حاكم دوقية بردال « بوردو » يستغيث ، لبى شارل النداء[1] ، وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرئبة للظفر ، وجنود متطلعة للقتال •

ولم يكتف شارل مارتل بما لديه من الفرنجة في غاليا ، بل بعث يستقدم جنداً من حدود الراين •• فأتته نجدات من جنـود أجلاف أقوياء ، يحاربون شبه عراة في مثل هـذا الجو البارد ، يتشحون بجلود الذئاب والنمور ، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية ، يرسمون للوحشية البدائية صوراً مزعجة حمراء •

لقد اجتمع لشارل مارتل بذلك جيش كثيف ، قادر على الثبات والمنازلة ، ضاقت بجموعه الكثيفة سهول فرنسة ، فتقدم الى شمال بواتييه في اتجاه تور • وفي تور التقى جيشان يختلفان عَدَدا وعُدَدا ، ولغة ودينا ، وهدفا وحضارة •

---

(١) استغاث أودو بخصمه شارل مفضلا أن يجتاح الفرنجة أملاكه ، على أن ينتزعها منه المسلمون ، ولبى شارل النداء ، لا حبا بأودو ، ولكن طمعا في الاستيلاء على أراضيه ، وبالفعل فقد استولى عليها بعد المعركة ، كما لبى شارل خوفا من غزو المسلمين لبلاده ، وقد باتوا على مقربة منها •

المعركة

بلاط الشهداء

★ قال رينو : « إنه بلغت حماسة المسلمين في تلك الغزوة ، أن بعض المؤرخين شبههم بريح صرصر تقتلع كل ما جاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل ما يصادفه » .

★ موقع المعركة :

أصح الأقوال ان المعركة كانت على مقربة من طريق روماني يصل شاتلرو Chatellerault ببواتييه ، على مسافة نحو عشرين كيلو مترا من بواتييه ، في الموضع الذي يسمى اليوم : Moussais — la Bataille ، وأكد ذلك اكتشاف سيوف عربية في الحفريات التي تمت حديثاً في الموقع المذكور[1] .

وتسمى المعركة بالأسماء التالية : البلاط ، بلاط الشهداء ، تور ، بواتييه .

---

(١) ويستدل على ذلك من الاثار المحفوظة في دير « مواساك » أيضا .

وبلاط هنـا لا تعني الطريق المبلط ، لكن المـراد بلفظ « البلاط » في الأندلس « القصر » ، أو حصن حوله حدائق تابعة له ، فيقولون : « بلاط مغيث » و « بلاط الحر » ، و « بلاط يوسف » ... ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال .

فبلاط الشهداء معناهـا : « قصر الشهداء » ، مما يفيـد أن مكان الموقعة كان بجوار قصر ، أو حصن كبير ، ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة[1] .

وخلاصة القول : إن المعركة حدثت قرب تور ، وانتهت قرب بواتييه .

* * *

قلما ذكر التاريخ معركة لها ما بعدها مثل هذه المعركة ، فكان المسيحيون من جهة يذبون عن ديانتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم . وكان المسلمون من جهة ثانية على اعتقاد راسخ أنهم يقاتلون في سبيل الله ، لنشر عقيدة ، ونشر إخاء ومساواة ، لتعم رسالة التوحيد أوربة كلهـا ، خلا من كان منهم مهتمـاً بحفظ الغنائم التي في أيديهم ، وخوفهم عليها مـن الضياع ، ولم تكن الغنيمة هدفاً للجميع ، لو كان الهدف غنيمة فحسب ، لعادوا بما اثقلوا به قبل بواتييه ، وبخاصة أنهم عرفوا أن شارل مارتل قد جمع جموعه وألب كل أوربة عليهم ، فالهدف ليس غنيمة وقـد تحققت ، بل فتح بمعناه الكامل .

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٧١ .

التقى الجمعان في ١٢ أو ١٣ تشرين الاول « اكتوبر » سنة ٧٣٢ م ، أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ رابط كل منهما أمام الآخر مدة ثمانية أيام ، وكان المسلمون هم الذين بدؤوا القتال ، وكان الفرنجة قادمين من حروب ابتسم لهم فيها النصر ، فكانت حماستهم تغلي مراجلها ، ويزيد فيهم وجود شارل مارتل ، الذي كلما ظهرت ثلمة خف وسدها بنفسه[1] ، حماسة وعزيمة .

هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل هجمات شديدة ، حاولوا بها خرق صفوف الفرنجة ، غير أنهم كانوا يجدون أمامهم صفوفا أشبه بالجدران في ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حملات المسلمين .

استمر القتال أول يوم طول النهار ، ولم يحجز بين المسلمين والفرنجة سوى الظلام ، وفي اليوم التالي تجدد القتال ، ورخصت النفوس في سوق المنايا ، وحمل المسلمون حملات مستميتة ، إذ لم يكونوا ينتظرون من الفرنجة مثل هذا الثبات ، ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً . وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم ، إذ أغارت فرقة من الفرنجة على معسكر المسلمين ، الذي فيه متاعهم .

ولخص الدكتور حسين مؤنس المعركة بما يلى[2] :

تدل التفاصيل التي لدينا على أن كلا من الفريقين كان يحس

---

(١) من خطط خالد بن الوليد في معاركه ، فقد كان لخالد كتيبة سريعة الحركة يقودها بنفسه دائما ، فكلما حدث خرق سده ، وأينما وقع ضعف أو خلل قواه .
(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٤ .

خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتبك الجيشان في المعركة الحامية إلا بعد بضعة أيام ، ظلا خلالها يتناوشان في اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك في قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويف والسكسون في اختراق خطوط العرب ـ المسلمين ـ يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد ، وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوماً عنيفاً بالحراب ، ولكن هؤلاء ثبتوا ثباتا فريداً ، بل بدا في بعض الأحيان ـ قرب مساء اليوم الثاني على الخصوص ـ أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم ، ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة ، فاخترقت صفوف المسلمين في موضع ، وأفضت الى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئاً عظيماً جداً ، فريع الجند الإسلامي المحارب ، وخشي الكثيرون من أفراده أن يستولي عليها هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا الى الخلف ليبعدوا الأعداء عنها ، وهنا اضطربت صفوف المسلمين ، واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية ، وحاول عبد الرحمن الغافقي جهده أن يثبت جنده ، ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، وأصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيش المسلمين ••

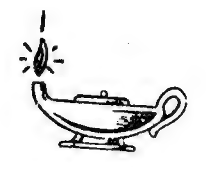
وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهزوا فرصة الظلام ، وتسللوا متراجعين الى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في العشرين

من تشرين الأول « اكتوبر » سنة ٧٣٢ م ، أوائل شهر رمضان سنة ١١٤ هـ •

وحينما أسفر الصبح نهض الفرنجة ، فلم يجدوا من المسلمين أحدا ، فتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فاذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن في الأمر خدعة ، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا مافيه ، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، إما لأنهم خافوا أن يكون العرب ـ المسلمون ـ قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركاً ، أو لأن « شارل مارتل » تبين مانزل بالمسلمين ، فرأى أنه يستطيع العودة الى الشمال مطمئناً الى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده •

اندفع المسلمون في تراجعهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة ، وحينما أحسوا أن أحدا من النصارى لا يتتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد •

وذكرت المصادر النصرانية الأوربية : أن فرقاً من المسلمين شردت عن الجيش فوقعت في الأسر • وهذا خطأ واضح ، فكيف تؤسر فرق من الجيش المسلم ، ولم يلحق بهم عدوهم ؟ ما هذا إلا من تخيلات المؤرخين النصارى ، ليظهروا عظمة نصرهم واندحار المسلمين •



نتائج المعركة

★ « لو انتصر العرب في تور ـ بواتييه،
لتلي القرآن وفسر في اكسفورد وكمبردج » .
جيبون

تعتبر معركة بلاط الشهداء معركة فاصلة في التاريخ العالمي ، فقد ترتب عليها تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير ، قال جيبون : « لو انتصر العرب في تور ـ بواتييه ، لتلي القرآن وفسر في اكسفورد وكمبردج » .

وقارن فشر في كتابه « أوربة في العصور الوسطى »[1] بين انتصار الفرنجة على المسلمين ، وبين عدم استطاعة المسلمين فتح القسطنطينية عام ٧١٧/٧١٨ م ، فقال : لو انتصر المسلمون في فتح القسطنطينية ، لوجدوا بين مسيحيي شرق أوربة مجالاً للدعوة الاسلامية ، وذلك بالقياس الى نجاح العثمانيين في القرن الخامس عشر ، لذلك يسهل تخيل نجاح المسلمين الديني قبل العثمانيين بسبعة قرون ، حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً يسيراً ، ولا تدري من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلاً ، على عكس غرب أوربة حيث اصطدم المسلمون بقوة

---

(١) أوربة في العصور الوسطى ، صفحة : ٦٦ ـ ٦٧ .

مسيحية منظمة أركانهـا على شيء كثير من تراث الامبراطورية الرومانية وجبروتها القديم ، ولو تم لهم النصر فرضاً في تور ، لظل بينهم وبين فتح فرنسة وتحويلها الى الاسلام عقبات دونهـا عقبات •

وهذا كلام مرفوض تاريخياً ، لأن قسماً كبيرا من سكان أوربة تمنَّوا انتصار المسلمين في بواتييه ، ليعمهم الرفاه ، والخير، والحرية •• كما عمّ اسبانية بعد الفتح الاسلامي •

ومن ناحية ثانية ، في رأينا هذه المقارنة خاطئة ، ومنبعهـا اعتزاز المؤرخين الأوربيين الصليبيين بنتيجة بواتييه ، علمـا أن الامبراطوريـة الرومانيـة الشرقيـة ــ خصوصـاً بعـد سبعة قـرون ــ لم تقـل حضـارة وتنظيمـاً عن نظيرتهـا الغربية ، وإن الامبراطوريـة الفارسية مثـلا لا تقـل عنهمـا حضـارة وتنظيماً ، وهذا مشهور لها تاريخياً ، ومع ذلك كان الفتح الاسلامي خلاصاً لشعوبها ، وتقبَّلته شعوبها ، ولم تر فيه مبدأ غريباً أجنبيا عنها ، وتحولت بعد الفتح الى الاسلام ، وما زالت تعتز به الى يومنا هذا ، والتاريخ أول من يعلم أن عدداً عظيماً من العلماء الذين قاموا لشرح وتفسير ونشر الاسلام وحضارته كانوا من الشعوب التي فتحت بلادهم •

هذا •• ولم تحل صدمة بلاط الشهداء دون إعادة الكرة على فرنسة ، إذ أن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف العرب عند هـذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرّات ، اعقبها النصر والفتح ــ كمـا سنرى في الفصل التالي ــ غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع الى

أن المسلمين ارتدوا عن فرنسة ، ولم يحاولوا اخضاعها اخضاعاً تاماً ، فضلاً عن أن الأحداث في هذا الجزء الغربي من العالم الاسلامي ارتبطت الى حد كبير بالأحداث التي وقعت في مركز الخلافة في شرقيه .

★ ومن نتائج المعركة :

١ ــ بالغ المسيحيون الأوربيون في تقدير عدد القتلى من المسلمين ، حتى أوصلهم « فِشَر » مثلا الى ٣٧٥ ألفاً ، نقلا عن بولس الشمّاس[1] ، وهذا بطبيعة الحال غير معقول ، فليس من اليسير وقتذاك حشد مثل هذا العدد ، أو ما يقاربه ، على كثرة الحروب في ذلك الوقت ، فضلا عن صعوبة التموين والمواصلات .

والجيش الاسلامي انسحب عند حلول الظلام ، وصمد حتى عند خرق صفوفه واستشهاد قائده العظيم عبد الرحمن الغافقي ، ونحن نعلم أن أشنع تمزيق للجيش ، وأكثر الدماء إراقة ، وأكثر الرجال أسرا لا يقع حين التحام الصفوف في المعركة وجها لوجه ، وإنما حين الانسحاب الكيفي ، حين الفوضى والذعر اللذين يصاحبان الفرار .

وذكرنا في المقدمة أن رهبة الافرنج من الجيش الاسلامي ظهرت في حذر الفرنجة واحجامهم عن مطاردة المسلمين ، وتوجسهم من أن يكون انسحاب المسلمين خديعة حربية ، وخطة مبيتة ، فلو أن الجيش الاسلامي انتهى الى أنقاض ــ كما تصور الروايات

(١) فشر ، تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، صفحة : ٦٧ .

النصرانية الكنسية ـ لبادر الفرنجة الى مطاردته والاجهاز عليه ، لأن الاجهاز على المسلمين كان غاية شارل مارتل ، وذلك لئلا تقوم لهم قائمة في فرنسة « غاليا » ، ولكن جيش المسلمين كان ما يزال من القوة والكثرة الى حدٍّ يخيف العدو ويردّه .

٢ ـ أساء شارل مارتل الى أوربة ومستقبلها الحضاري ، وكرامة انسانيتها بمدافعته عنها لما سيبعث حياتها ، فلو انتصر المسلمون لتخلّصت أوربة من ظلماتها وجهالتها واستبدادها ، وحطّمت الاستغلال والاضطهاد ، كما كانت ستتخلّص من عار محاكم التفتيش السوداء فيما بعد[١] .

فإن انتصار المسلمين في أية بقعة من هذا الكون ، يَعْني انتصار النور والمدنية والمساواة والحضارة ، وهذا ماكان سيكون في فرنسة وأوربة جمعاء .

واسبانية ـ وهي أقرب بقعة من فرنسة ـ خير شاهد ، أما قال « ول ديورانت » في قصة الحضارة : « ولم تشهد بلادالأندلس في تاريخها كله حكماً أكثر حزماً وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب[٢] » !؟

٣ ـ اتهم المؤرخون الأوربيون المسلمين بتخريب الكنائس والأديرة في فرنسة ، وهذه الشبهة قالها فيليب حتي في كتابه

---

(١) التاريخ الاندلسي ، للدكتور الحجي ، صفحة : ٢٠٢ .

(٢) راجع « الحضارة في الميزان » لأرنولد توينبي ، ص : ٨٦ : طبع « البابي الحلبي » .

« تاريخ العرب » صفحة ٥٩٥ ـ ٥٩٦ ، قال حتي : وقد تقدم عبد الرحمن الغافقي فقطع سلسلة البرنه •• ثم أخذ بوردو عنوة ، وأشعل النار في كنائسها ، وبعد أن أحرق الباسيليكا « الكنيسة » القائمة خارج أسوار بواتييه ، زحف شمالاً حتى جوار مدينة تور •

والثابت المعروف أن هدف المسلمين لم يكن حرق الكنائس والأديرة ، لأنه بمقارنة المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غاليا في تلك الحقبة ، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين ، وبرجنديين ومن اليهم ، يتبين أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة ، وأبعدهم عن النهب والتخريب •

وقد أشارت النصوص التي وردت بالمراجع اللاتينية النصرانية الى أن الذين خربوا هذه الأماكن وغيرها هم الوند والوندال ، فجاء مؤرخو الكنيسة وقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم « رينو » وغيره من المؤرخين المحدثين ، مما يدل على التعسف وعدم الدقة ، ولا سيما أن هذه التسميات بعينها ، أطلقت بعد ذلك على المجرمين الذين خرّبوا هذه النواحي زمن شارل مارتل وبيبن وشارلمان ، ولو أن « رينو » عاد بعد ذلك وتشكك في أن المسلمين هم الذين قاموا بهذا التخريب • بل إن الفرنجة أنفسهم بقيادة عاملهم الأكبر شارل مارتل « قارلة » نهبوا الكنائس ، واستولوا على كنوزها وخربوها فيما بعد وقعة تور ــ بواتييه[1] •

---

(١) فجر الاندلس ، صفحة : ٢٥٨ ـ ٢٥٩ •

وللحقيقة .. فإن الكنائس والأديرة التي تهدّمت في فرنسة، جرت أحداثها وفق ما يلي :

أ ــ إن عدداً من الكنائس والأديرة ، وخصوصاً تلك التي كانت مبنية خارج أسوار المدن ككنيسة مدينة تور مثلاً ، كانت قلاعاً وحصونا في حقيقتها ، وكان الفرنجة يقاتلون المسلمين من ورائها ، فليس بدعاً إذا هدم المسلمون بعضها في أثناء المعارك .

ب ــ كانت قبائل البرابرة الجرمان لا تزال الى ذلك الحين على الوثنية ، وكان القتال محتدماً بينها وبين خصومها من الفرنجة وسواهم ، فكانت تلك القبائل تعيث في غربي أوربة ، وتدمّر كل شيء بما في ذلك الكنائس .

حـ ــ كان شارل مارتل نفسه إذا هاجم أراضي خصومه ومنافسيه ، لا يتحوَّب من تهديم الكنائس ، مع أنه كان مسيحياً .

د ــ وبما أن المؤرخين الأوربيين الأولين كانوا قسساً ورهباناً ، فقد افتروا على المسلمين ، واتهموهم بأنهم كانوا يهدمون الكنائس والأديرة ، تأليباً للرأي العام المسيحي عليهم ، وكانوا أيضاً ينسبون إليهم هدم الكنائس التي كانت قد تهدمت على يد القبائل الوثنية ، وعلى يد شارل مارتل نفسه .

هـ ــ وزعم مؤرخو الفرنجة أن المسلمين هاجموا ديراً كان فيه خمسمائة راهب فذبحوهم جميعا ، ولعمري إن خمسمائة راهب في دير ــ والأديرة في كل مكان معاقل وحصون طبيعية ــ لا يستطيع جيش كبير أن يبلغ إليه ، ثم ان ذبح خمسمائة راهب

لم يكن ميسوراً في زمن كانت الحرب فيه تعتمد على عددالمقاتلين، وعلى قوتهم البدنية ، ومناعة مراكزهم في الدرجة الأولى[1] .
وعلى الاطلاق لم يُعْرَف عن المسلمين خلال فتوحاتهم الواسعة شرقاً وغرباً ، أنهم اعتدوا على أديرة ورهبان . إلا في أرض غاليا ، فقد جاءت قرائح المؤرخين الصليبيين بذلك بعد بلاط الشهداء !؟! ووجدوا بسبب انتصارهم آذاناً صاغية .

٤ ـ أسرع والي افريقية عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مدداً بقيادة عبد الملك بن قطن الفهري ، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي ، ثم بعث بخبر الفاجعة الى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك[2] وما فعله ، فأمره الخليفة بغزو فرنسة وأخذها بالسيوف من كل جانب .

توجّه عبد الملك بن قطن الفهري أول الأمـــر الى نواحي شمالي الأندلس ـ كما سنرى ـ وحصَّن المعاقل التي ما زالت بأيدي المسلمين ، وكانت « سبتمانية » في ذلك الوقت في فوضى واضطراب بسبب الحروب المتوالية ، وانسحاب المسلمين في بلاط الشهداء ، وحاول بعض زعمائها انتهاز فرصة هذه الاضطرابات وتوزيع البلاد فيما بينهم ، بعد أن تلاشى أمر الدوق أودو ، وأدى ذلك الى صراع بينهم ، مما جعل بعضهم يرتمي في أحضان المسلمين

---

(١) العرب والاسلام في الحوض الغربي ، ص : ١٣٣ ـ ١٣٤ ، عن غزوات العرب ، ص : ٧٢ ـ ٧٦ ـ ٨٠ ـ ١٠٧ ـ ١١٠ .
(٢) الخليفة الاموي العاشر ، من : ١٠٥ الى ١٢٥ هـ ، أو : ٧٤٢ ـ ٧٤٣ م.

خشية وقوعهم تحت سلطة شارل مارتل « قارلة » ، أو سلطة الدوق أودو[1] .

٥ ــ بقي أهالي جنوب فرنسة يكرهون الفرنجة رغم انتصارهم على المسلمين ، لأن الفرنجة في نظرهم برابرة ، على حين أن أهالي جنوبي فرنسة تشبعوا بالحضارة الرومانية ، وكان هناك خلاف جوهري بين جنوب فرنسة وشمالها ، فبينما تسود الجنوب حضارة البحر المتوسط اللاتينية والبيزنطية ، تسود الصبغة الجرمانية شمالي فرنسة ، وهذا سر عدم ولاء بروفانس والمواطنين فيها للفرنجة الجرمان ، وفضلا عن ذلك ، فان قارلة « شارل مارتل » عندما استرجع أملاك الكنائس والأديرة ، لم يردها على أهلها ، بل وزعها على رجاله ، وأكثر من ذلك ، لم تسلم كنوز الكنائس من نهب قارلة وجنوده ، مما أغضب القساوسة ، وعامة الناس .

ويفسر هذا تخالف « مورون » الذي اتخذ لقب : « دوق مرسيليا » مع المسلمين[2] ، وكذلك أسقف « أوكسير » وغيرها .

وعلى ذلك لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئاً ، بل كان قارلة نفسه لا يكتب اسمه لا باللاتينية ولا بغيرها[3] .

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٦ ــ ٢٧٧ .

(٢) وكان يتحكم في أغلب اقليم بروفانس .

(٣) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٧ عن :

— Deuaesly P. 296 , Scotl I. P. 309 , Deanesly P. 286

وكذلك كان شارلمان بعده ، وموقف قارلة من الكنائس وكنوزها يثبت أن موقفه موقف طاغية عسكري ، لا يفكر إلا في ملكه ، وأمواله ، وغنائمه • وليس الى الشك من سبيل في أن السمح بن مالك ، وعبد الرحمن الغافقي وأمثالهما من الفاتحين في فرنسة ، كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان يعرفه قارلة « شارل مارتل » ورجاله في مملكته ، لذلك كانت بواتييه صراعاً بين حضارة وجاهلية ، وبين نظام وفوضى ، وبين انسانية وهمجية ••• على المدى البعيد •

وهذا ما فطن اليه المؤرخون الاوربيون ، قال أناتول فرانس:

« إن أهم تاريخ في حياة فرنسة هو معركة بواتييه حين هزم شارل مارتل الفرسان العرب في بواتييه سنة ٧٣٢ م ، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوربية » •

٦ ـ بعد بلاط الشهداء لم يفقد المسلمين جميع ماكان تحت أيديهم في فرنسة ، بل ظلت لهم أربونة وما حولها ، على أن الذي لا ريب فيه أن غزوة الغافقي هذه كانت آخر محاولة جدية قام بها المسلمون لغزو بلاد الفرنجة •

٧ ـ وانهزام المسلمين في بواتييه لم يكن هو الذي أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » ، وكانت الهزائم لا تعني في حسابهم شيئاً ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة في شمال افريقية ، أيام عقبة بن

نافع ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والاصرار على الفتح ، إنما الذي أوقف تقدم المسلمين هم المسلمون أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية ، وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ ، وتفاهة النظرة الجاهلية الى الحياة[1] .

٨ ــ لو انتصر المسلمون في بلاط الشهداء ، لدخلوها فاتحين منظمين ، يريدون ادخالها في رحاب دولتهم وتحويلها الى الاسلام، ولو استقر لهم الامر في فرنسة لاتجه نظرهم الى ماوراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » في تاريخ النصرانية ، فقد حالت بينها وبين الزوال حقا .

ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا في بلاط الشهداء وأقاموا حكم الاسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت في الأندلس ، لأن الذي أعاد النصرانية في الاندلس انما هو عجز المسلمين عن فتح فرنسة[2] .



(١) فجر الاندلس ، ص : ٣٠٥ .
(٢) فجر الاندلس ، ص : ٣٠٢ .

المسلمون في فرنسة

بعد بلاط الشهداء

✱ خسر المسلمون بواتييه ، وبالتالي خسروا أوربة كلها ، ولعل الله عز وجل أراد أن يبقي اسلام أوربة الى القرن العشرين ، حيث يشهد العالم اليوم دخول الاوربيين ألوفا في الاسلام ، ليعلم العرب أن الاسلام قوته ذاتية خالدة ، وأنهم أقوياء بالاسلام وحده .

تحالف « مورون » دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي أربونة ، وزحفا معاً وعبرا نهر الرون ، واستوليا على « آرل » عام ٧٣٥م ، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة «فرتا»، وهي المعروفة اليوم باسم « سان ريمي » ، ثم تقدمت هذه الجيوش واستولت على « أفينيون » وهي التي يسميها العرب : « صخرة ابنيون » .

كما وصل المسلمون الى نهر « ديرانس » أحد فروع نهر الرون ، وهو الذي تقع عليه مدينة افينيون ، عند نقطة اتصاله بالرون ، وظل المسلمون يتحكمون في « بروفانس » أربع سنوات، لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيها[1] .

---

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١١٧ ، عن فجر الاندلس ، ص : ٢٧٨ ، والغرب والاسلام في الحوض الغربي ، ص : ٦٨ .

وزحف شارل مارتل عام ٧٣٢ م ، واستولى على لودون « ليون » ، وكان المسلمون قد تخلوا عنها بعد بلاط الشهداء ، كما تخلوا عن برجنديا ، وفي عام ٧٣٥ م ، توفي الدوق أودو ، ووافق شارل على أن يخلف « هينود » أحد أبناء الدوق أباه في منصب الدوقية ، مع تبعيته لشارل ، فأقسم هينود يمين الولاء له .

اطمأن عبد الملك بن قطن الفهري الى نجاح قائده يوسف الفهري ، فانصرف الى تدعيم سلطان المسلمين في امارات جبل البرانس ، لكنه لم يوفق ، فولى الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج السلولي عام ١١٦ هـ / ٧٣٤ م . والسلولي كما وصفه ابن‌عذاري: « صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو وشدة » .

لقد كان السلولي من طراز الغافقي والسمح وعنبسة ، تقوى وحباً للجهاد ، وعدلا وحسن سيرة ، حتى أن الروايات النصرانية تُجْمِع على الثناء عليه ، ويذكر عنه ابن عذاري[1] أيضا : أن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه الى الإسلام ، ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألف رجل ، مما يثبت لنا تاريخيا ، أن عقبة السلولي ، ومن عمل تحت امرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق ، حتى مع الأسرى ــ وكان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام ــ فكيف بأهل المدن والأرياف ، أو الأديرة والكنائس ؟!

ومن حسن تصرف عقبة بن الحجاج السلولي ، أنه لما لم يجد

---

(١) البيان المغرب ، ج : ٢ ، ص : ٢٩ .

في تصرفات سلفه عبد الملك بن قطن الفهري ما يؤخذ عليه ، عهد إليه بقيادة الخيالة ، وأرسله الى الثغر ، وأخذ يعد العدة لعبور البرانس[1] ، بعد أن اشتعل حماس المسلمين للثأر لبلاط الشهداء، فحصّنوا ما بأيديهم من مدن غاليا ، وشحنوها بالمقاتلين ، ثم عبروا « دوفيني » شمال بروفانس ، وفتحوا « فالانس » على نهر الرون ، واستعادوا « ليون »و « برجنديا »[2] .

وجال عقبة السلولي في شرق فرنسة ، في الوجهة التي سلكها عنبسة قبله ، ولكنه لم يصل الى ما وصل اليه عنبسة شمالا ، وسيستشهد عقبة قرب قرقشونة ، احدى مدن سبتمانية في صفر ١٢٣[3] هـ .

استعد شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفنيون ، التي تعتبر مفتاح الرون ، وقرر الاستيلاء على مرسيليا أيضاً ، ليتخلص من تحكم المسلمين في جنوب فرنسة ، هذا التحكم الذي يؤدي الى ضيق اقتصادي شديد لغرب أوربة .

استولى شارل مارتل عام ٧٣٧ م على أفينيون واقتحمها بعد أن استمات المسلمون في الدفاع عنها ، ثم حاصر أربونة معقل المسلمين في جنوبي فرنسة ، وأميرها يومئذ « الهيثم » أو هرثمة كما في بعض المصادر ، ولكنه عجز عن فتحها ، إذ أسرع عقبة السلولي ، وأرسل جيشاً عن طريق البحر لنجدة أربونة ، غير أن

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص : ٢٩٣ ، أرسلان « غزوات العرب » ص : ٩١-٩٣ .
(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٢٠ .
(٣) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٠٥ .

شارل مارتل باغت هذه النجدة قبل أن تتهيأ للقتال ، وقضى عليها ، ومع ذلك صمدت أربونة للحصار ، مما اضطر شارل الى الرحيل عنها ، بعد أن نازل المسلمين أياما ، أصيب له فيها رجال عديدون، فتعذر عليه المقام ، وخامره ذعر وخوف من المسلمين ، فزال عنهم راحلا الى بلده ، وقد نصب في وجه المسلمين حصوناً على وادي رودنة ، شكها بالرجال ، فصيرها ثغراً بين بلده والمسلمين[1] .

وقبل أن يرحل شارل خرّب القلاع في « نيم » و « آجه » و « بيزيي » و « ماجلون » التي تعرف باسم « ثغر المسلمين » ، إذ كانت مرسى أمينا للسفن الاسلامية القادمة من الأندلس وافريقية ، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الامدادات التي تصل عن طريقها[2] .

* * *

وبينما تلك الأحداث تجري في حوض البحر المتوسط الغربي، كانت الدعوة العباسية تشغل الخلافة الأموية في أواخر عهدها ، فلم تتمكن الدولة الأموية من بذل العناية الواجبة بهذا القسم البعيد من العالم الاسلامي في الغرب ، وأصبح أمر الأندلس موكولا لأمراء افريقية والأندلس وامكاناتهم ، وزاد الأمر خطورة ثورة الخوارج في افريقية عام ٧٤٠ م ، ثم ثورة البربر ضد العرب في اسبانية وتكرارها عام ٧٤٠ ، ٧٤٧ م .. كل ذلك يفسر لنا

(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٧٤ .
(١) فجر الاندلس ، صفحة : ٢٨١ ، ٢٨٤ .

ما تتابع من بعض الهزائم في فرنسة ، مما أثر على الروح المعنوية في مسلمي الأندلس •

وفي عام : ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م قامت الدولة العباسية ، وانتقلت الخلافة من دمشق الى بغداد ، مما أدى الى انقسام العالم الاسلامي •

كما حدث تغيير في العالم الغربي أيضاً ، فقد زالت الدولة الميروفنجية ، وقامت الدولة الكارولنجية ، فبعد وفاة قارلة « شارل مارتل » عام ٧٤١ م ، ورثه أبناؤه الثلاثة : « كارلمان ، وببين القصير ، وابن غير شرعي هو جريفو » • وساعدت الظروف ببين القصير ، فانفرد بالنفوذ عام ٧٤٧ م بسبب دهائه ، وتأييد البابوية له ، فأنهى حكم الميروفنجيين •

وعلى ذلك •• فإن الوضع السياسي في منتصف القرن الثامن للميلاد ، النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، قد تبلور عن وجود ثلاث قوى عالمية ، هي :

١ ـ الامبراطورية الاسلامية ، الأمويون ثم العباسيون •

٢ ـ الامبراطورية البيزنطية ، في شرق أوربة •

٣ ـ دولة الفرنجة الكارولنجية في غرب أوربة •

وخلال هذه الظروف والأحوال المضطربة في العالم الاسلامي، قام المسيحيون في مدن سبتمانيا بمساعدة الجيش الفرنجي، فتمكن « أنسمندس » القوطي من ارجاع المسلمين عن سبتمانيا ومدنها

عام ٧٥٢ م ، واستعاد أغلب المدن ، أما « أربونة » وهي آخر حصن قوي للمسلمين ، فقد حاصرها الفرنجة ، وطال حصارها لمناعتها ، وتمكن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين ، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها[1] .

ولما دخل عبد الرحمن الداخل الأموي الأندلس ، واستتب الأمر له عام ١٤٠ هـ / ٧٥٨ م ، التفت الى مدينة أربونة المحاصرة، وأرسل لها مددا بقيادة الأمير سليمان الأموي ، ولكن عصابات المسيحيين المنتشرة في جبال البرانس قضت على هذا المدد .

وطال حصار أربونة ، فتآمر السكان المسيحيون بها ضد المسلمين ، وقرروا الايقاع بهم ، فاتفقوا سراً مع ببين القصير على تسليمه المدينة ، بشرط أن يتركهم أحرارا في مدينتهم مستقبلا ، وقاموا على الحامية الاسلامية في أربونة، فأجهزوا عليها ، واقتحموا أبواب المدينة ، وفتحوها لجيوش الفرنجة ، فدخلتها سنة ٧٥٩م ، وبذلك قضي على الحكومة الاسلامية في أربونة بعد أن ظلت بها نحو أربعين سنة : ٧٢١ ـ ٧٥٩ م[2] .

كما سقطت سبتمانيا بيد الفرنجة بعدها ، ولما توفي ببين سنة ٧٦٨ م ، كانت جبال البرانس هي الحد الطبيعي بين مملكة الفرنجة والمسلمين في الأندلس .

حكم الفرنجة بعد ببين القصير الأخوان شارلمان وكارلمان ،

---

(١) المسلمون في أوربة ، ص : ١٢٢ ـ ١٢٣ .
(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٩٠ ، وغزوات العرب « أرسلان » ، ص :١١٢-١١٣.

وبموت كارلمان عام ٧٧١ م ، حكم شارلمان مملكة الفرنجة موحدة نحو ثلاثة وأربعين عاما ، وفي زمن شارلمان قل العمل الاسلامي في فرنسة ، مع بقاء الطريق مفتوحاً أمام الزحف الاسلامي ، وذلك من حصن سرقسطة الواقعة على نهر إيبرة ، ومن المعاقل الاسلامية في برشلونة ووشقة(١) .

★ لقد انصرفت جهود المسلمين كلها الى الجنوب الشرقي لفرنسة والى حوض الرون ، ولو نفذوا من الغرب أيضاً من أول الأمر لسيطروا على أقطانية ، وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم ، وثبتوا أقدامهم في جنوب فرنسة كلها ، ولاستطاعوا أن يكونوا أثبت أقداما في المعارك التي هُزموا فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة ، وعند تور ــ بواتييه مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماما في الركن الغربي من جبال البرانس ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جبليون ذوو مهارة حربية وجلد ، لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث اسلامي إلا هاجموه وتخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم غرة في المسلمين إلا انتهزوها ، وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من أهم الأسباب في زوال سلطانهم عن منطقة البرانس وما جاورها من الولايات الاسبانية النصرانية التي ستناوىء المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية ، وريباجورثا وغيرها .. ولو اهتم المسلمون

---

(١) وهذا ما سنراه في الجزء السابع من هذه السلسلة في موقعة باب الشيزري « ممر رونسفال » ان شاء الله .

باكمال اخضاع منطقة البرانس وتثبيت أقدامهم فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكانْ هذا أجدى عليهم من الاسترسال في مغازاة فرنسة ، لأن غزواتهم في فرنسة لم تؤتهم أي ثمر على الاطلاق ، في حين كان تمهيد الأمر في نواحي البرانس تمهيداً تاماً يؤمن الأندلس الاسلامي ، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس في الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى في فرنسة وايطالية[1] .

رحم الله الحرّ بن يوسف ، والسمح بن مالك ، وعنبسة بن سحيم ، وعبد الرحمن الغافقي ، وعبد الملك بن قطن ... وكل من استشهد من المجاهدين معهم ، لقد شعروا أنهم يقومون بفتح منظم لفرنسة ، هدفه ادخالها في رحاب الاسلام ، لا مجرد غارات سريعة بعيدة المدى هدفها غنيمة ، بل إن جهودهم كانت من أروع وأبهى الفتوح الاسلامية الحربية ، وان تضحياتهم كانت من أغلى ماضحي في فتوح الاسلام ، وكانت أعمالهم جديرة بالاستتباب في فرنسة وادخالها في الدين الحنيف ، لو لم يكن الاندلس نفسه مضطرباً منقسماً ، ولولا البعد السحيق عن مركز الخلافة في دمشق ، حيث حرم الفتوح من توجيه الدولة ، ومن عونها السريع بالرجال . ولولا أحداث المشرق الاسلامي التي انتهت بالقضاء على الامويين وقيام دولة بني العباس .

---

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٩٤ ـ ٢٩٥ وما بعدهما .

خاتمة
خرافة مونوسة
و
«شارل وعبد الرحمن»

★ « لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن واعية »

الحاقة : ١٢

★ في « روايات تاريخ الاسلام » قدّم جرجي زيدان رواية تحمل عنوان « شارل وعبد الرحمن[1] » . والمتفحص الدارس لهذه الرواية ، يجدها رواية خيالية نسجها « جرجي » حول شخصيات لا وجود لها على مسرح الحياة ، ومن حسن الطالع أنني كتبت « بلاط الشهداء » كما جاءت في مصادرنا العربية الاسلامية، ثم عدت وتفحّصت رواية « جرجي » عن شارل وعبد الرحمن، فكانت الدراسة الثانية تتمة للدراسة الأولى ، خرجت منهما بأكثر من عشرين نقطة يمكن التحدث فيها ، مع أنني لو قلت ليس في الرواية نقطة تستحق الكتابة فيها لأمكنني ذلك ، إذ أن الرواية خيالية لا أصل لها تاريخيا ، ومع ذلك سنناقش أولا أصل فكرة الرواية التي اعتمد عليها « جرجي » ، وهي خرافة في أساسها ،

(١) سوء الطوية يظهر في عنوان الرواية « شارل وعبد الرحمن » لقد قدم « جرجي » شارل على عبد الرحمن ، ولا ندري لماذا ؟!

ثم نعالج ـ بعد تجاوز هذه الخرافة ـ الطعنات والشبهات التي وجهها « جرجي » في روايته لتاريخنا وإسلامنا وأبطالنا ، وهذا من قبيل وضع الاصبع على مواطن الادانة ، لا مواطن الاتهام •

★ جعل « جرجي » أبطال روايته « شارل وعبد الرحمن »، وهي جزء من سلسلة تحمل اسم « روايات تاريخ الاسلام » ، على النحو التالي[1] :

١ ـ عبد الرحمن الغافقي : قائد الجيوش الاسلامية •

٢ ـ هانىء ، ولا نسب أو والد له ، وهو شخصية لا أصل لها ، اخترعها « جرجي » من فكره ، وأوكل إليه قيادة الفرسان المسلمين •

٣ ـ شارل « قارلة » : قائد جيوش الافرنج ، وحاكم أوستراسيا ، وشارل في الرواية ـ كما أوضح « جرجي » ـ بطل من أبطال تاريخ الإسلام !

٤ ـ بسطام ، لا نسب له أيضاً ، جعله « جرجي » قائداً للبربر ، وهو أيضاً شخصية خيالية ، جعلها الى جانب « هانىء » لمنافسته في حبه لفتاة يتبادل معها « لواعج الغرام » •

٥ ـ مريم : حبيبة هانىء ، تحمل وجه امرأة لا مثيل لجماله في العالم ، وفيها شجاعة الرجال ورقة النساء •

---

(١) نورد هنا الابطال كما رتبها « جرجي » في الصفحة الثانية من الرواية ، كما أوردها دون اضافة من قبلنا ، أو حذف احداها •

٦ ـ سالمة « أجيلا » : والـدة مريم ، زوجـة رودريك « لذريق » ملك الاسبان ، وهي بطلة في روايـة تحمل اسـم « روايات تاريخ الاسلام » !

٧ ـ لمباجة : بنت الدوق أودو ، وزوجة لقائد بربري سابقاً ، وهي أصل وأساس في رواية تاريخ الاسلام !

٨ ـ أودو : حاكم اكيتانيا ، ووالد لمباجة ، وكما هو ظاهر ، أودو أيضا بطل من أبطال روايات تاريخ الاسلام !

★ وقبل مناقشة النقطة الاولى ، نذكر هنا المراجع التي ثبتت في الصفحة الثانية من الرواية ، والمتفحّص لهذه المراجع يجدها تمويهاً كبيرا لكذب الرواية ، وطلاء زائفـاً أراد صبغ الخيـال بالحقيقة التاريخية ، فان ذكر ابن الأثير مثلا تراه عاد اليه مرة أو مرتين فقط ، خلال رواية صفحاتها ٣٤٣ صفحة[١] • بينما يعود مرات عديدة الى مراجع أجنبيـة ، معروف أصحابهـا بالتعصب والصليبية ، والتعصب والصليبية يكفيان لمجانبة الحقيقة ، ولعدم الموضوعية في البحث ، فهو يعتمد على : رينو ، رومي ، دوزي ، جوبون ، فيسفوروس[٢] ••

كما تراه يعود الى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » لتثبيت أقوال له ، كما في الصفحة : ١٤و٤٢و٤٩ •

---

(١) الطبعة هنا ، هي طبعة : منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ بيروت •

(٢) هذا لا يعني مطلقا رفض كل مرجع أجنبي ، المرجع الاجنبي الذي يبحث في تاريخنا ، ان اعتمد مؤلفه على مراجعنا ، أو ان عرف بموضوعيته وبحثه عـن الحقيقة ، وببعده عن التعصب ، فلا باس في اعتماده أبدا •

ومراجعه كما ذكرت في أول الرواية هي كالتالي :

١ ــ ابن الأثير ، وعاد اليه مرة واحدة فقط في صفحة : ٢٩٩ •

٢ ــ وذكر « جوبون » في مراجعه ، ولكنه لم يرجع اليه على الاطلاق •

٣ ــ ابو الفداء ، لم يرجع إليه أبداً ، فلا يعثر القارىء على أية اشارة لأبي الفداء وتاريخه « البداية والنهاية » •

٤ ــ رومي ، عاد إليه عشرة مرات في الصفحات : ٨ ، ١٤ ، ٣٧ ، ٦٠ ، ١١٠ ، ١٦٤ ، ٢٦٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣١ •

٥ ــ رينو ، عاد اليه تسع مرات في الصفحات : ٨ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٩٧ ، ١٠٩ ، ١٥٤ ، ١٦٣ •

٦ ــ دوزي ، عاد اليه مرة واحدة فقط •

٧ ــ المقري ، وعاد وذكر « جرجي » مرجعاً آخر هو « نفح الطيب » ونفح الطيب هو لمؤلفه المقري ، فذكرهما وكأنهما مرجعان منفصلان ، ومع ذلك •• عاد الى « نفح الطيب » مرتين فقط ، في صفحة : ٢و٢٩٨ لخبر واحد ، ولذكر فكرة واحدة ، هي عزم المسلمين على مواصلة الفتح في أوربة حتى يعودوا الى الشام من طريق القسطنطينية •

٨ ــ مختصر الدول ، لم يرجع الى هذا الكتاب أبدا •

٩ ــ وكذلك لم يرجع الى المرجع المدون فيسفوروس •

١٠ ـ كتاب « نهاية الأرب في قبائل العرب » ، عاد اليه مرة واحدة صفحة : ١١ فقط ، ليذكر أن عبد الرحمن الغافقي من قبيلة بني غافق ، وهي من القبائل اليمنية •

١١ ـ ثم عاد وذكر من المراجع « رينو ورومي » معاً ، وقد ذكرا قبلا •

١٢ ـ البيان والتبيين للجاحظ ، عاد إليه مرة واحدة صفحة ٤٤ فقط ، ليذكر ان في جملة جيش الاسلام جنداً من البربر ، وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والاقباط والانباط وغيرهم ، ويتبعها بقول الجاحظ : « وفيهم من لا يزال على اليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو المجوسية ، وإنما يتظاهرون بالاسلام » • وهذا كلام مرفوض كلا ، لأن المسلمين لا يتعاملون مطلقاً مع وثنية أو مجوسية ، ولا يعترفون بهما في الأصل ، لأنهما ليستا من أهل الكتاب •

هذه هي كل المراجع التي عاد إليها « جرجي » في تأليفه رواية « شارل وعبد الرحمن » الخيالية !!

* * *

أولا ••

جعل « جرجي » محور روايته على امرأة اسمها « لمباجة »، وكان للمباجة هذه دور رئيسي في مسار الرواية وأحداثها ، وإذا عدنا الى مصادرنا العربية الاسلامية نجدها تقول :

تزعم الكتب الافرنجية أن عثمان قد أسر في احدى غزواته ابنة أودو دوق أكويتانية ، وكانت رائعة الجمال ، فهام بها وتزوجها ، وتسمى تلك الكتب ابنة أودو أسماء مختلفة : نوميرانسة ، مينين ، لامباجية[1] ، وكذلك تسمي تلك الكتب عثمان نفسه مونوسة ، أو مونوزا ، وتجعله من البربر .

وقالوا : فلما سكن عثمان الى زوجته ترك الغزو ، وأصبح ضلعه مع صهره أودو ، ونذيراً إليه بتحرك الجيوش الاسلامية نحو بلاده ، فيقال : إن عبد الرحمن الغافقي أرسل الى عثمان من تغلّب عليه فقتله، وقيل بل قتل في حدث آخر[2]، « ومع أن الغالب على هذه الرواية أنها موضوعة من أساسها ، فانها تدل على أن عبد الرحمن الغافقي لم يكن غافلا عن بعث الطلائع قبل أن قام بهجومه الرئيسي[3] » .

لقد نسجت الروايات الأوربية الكنسية حول مونوسة أوهاما، ونحلت حولها تفصيلات لاستنتاج أمر ، أو بناء أمور اتخذتها فيما بعد حقائق لا ريب فيها . وخلطت ــ كما جاء في تاريخ غزوات العرب ــ بين مونوسة وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، أحد ولاة الاندلس لمدة خمسة أشهر ، ابتدأت من شعبان سنة ١١٠ هـ ، كل ذلك يجعل من مونوسة خرافة ، وعلى الخصوص اذا علمنا أن مونوسة اسم لأرض ، ففي البيان المغرب لابن عذاري : إن والي

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص : ٨٧ .

(٢) الاسلام في الحوضين الشرقي والغربي ، ص : ١٢٨ .

(٣) دولة الاسلام في الاندلس ، ج : ١ ، ص : ٨١ ــ ٨٥ .

الأندلس غزا منوسة[١] ، وفي تاريخ ابن خلدون : غـزا أرض مقوشة فافتتحها[٢] .

ومما تقوله الرواية الأوربية الكنسية : أن رجلا من الجنس البربري اسمه « مونوس Munus » ترامت إليه من حدود ليبيا « افريقية » أخبار الظلم القاسي الذي كان يعانيه أبناء جنسه في هذه البلاد ، فصانع الفرنجة ، وصاهر أودو من أقطانية ، وأخذ يعمل على ايذاء العرب ، أعـداء اسبانية ، ووثب بهم بالفعل ، وأصبح في حرب دائمة معهم ، ولكن أنصاره كانوا على خلاف متصل معه ، ولم ينهض عبد الرحمن الغافقي لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالي عشر حملات ، فنهض عبد الرحمن لمونوسة، وتتبعه ، ففر الى خوانق الجبال ، وتحرج مركزه ، وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه ، وقبضوا على زوجته وأرسلوها الى بـلاط الخليفة . وتفيض الرواية كما نسجتها وتخيلتها المراجع الاوربية الكنسية بعدها بذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبـد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى ، وخاصة أهل شرطانية ، وكيف أنه أحرق « أناباديوس » أسقفها بعد ذلك[٣] .

ويمكن تقديم سؤال واحد تترك اجابته للقارىء ، ننهي به خرافة مونوسة « لمباجة » ، لقد نصّت الرواية الأوربية الكنسية

---

(١) البيان المغرب ، ج : ٢ ، ص : ٢٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج : ٤ ، ص : ٢٥٨ .

(٣) القصة في « فجر الاندلس » ص : ٢٥١ وما بعدها ، عن :
Isidoro Pocense : Chronicon C. 58

على أن المسلمين قبضوا على زوجة مونوسة ، وأرسلوها الى بلاط الخليفة ، أي الى دمشق ، على بعد آلاف الاميال عن الأندلس ، آلاف الأميال عن أرض فرنسة ، مسرح أحداث رواية «جرجي» ، فكيف رافقت مونوسة ، أي لمباجة في عرف « جرجي » الحملة مع الغافقي ، لتعمل دساً وتخريباً ووقيعة ، مع أنها في بلاط الخليفة بدمشق ، بحسب نص الرواية الأوربية الكنسية ؟!

ولنتفكر بعدها بخاتمة الخيال ، بعد ذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن الغافقي بالنصارى « وكيف أنه أحرق أناباديوس أسقف شرطانية » ، فهل عُرِف المسلمون بمثل هذه الأعمال على مرّ تاريخهم الطويل الواسع ، هذا التاريخ الذي يشهد بعفوهم وبرحمتهم التي شملت الحيوان والنبات فضلا عن الإنسان[1] ، حتى قال منصف من الأوربيين أنفسهم : « ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب[2] » .؟!؟

إنه التعصّب الكنسي ، وصليبية العصور الوسطى الأوربية، التي وقعت بالمتناقضات عندما نسجت من خيالها تاريخاً فافترت ، ودسّت على تاريخنا عن قصد فامترت .

* * *

---

(١) جاء في وصية الصديق لجيش أسامة « .. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة .. » .

(٢) القول للمؤرخ : « غوستاف لوبون » في كتابه : « حضارة العرب » .

ثانيا ..

وهذه بعض ملاحظاتنا على الروايـة « الزيدانية » ، التي نسجها خيال « جرجي » الخصب[1] :

١ ـ عاد « جرجي » كما في روايته « فتح الاندلس » ليدس بين العرب والبربر ، وليتهم الأمراء العرب بعدم تفريطهم في جنـد العرب ، فقال عن موسى بن نصير : « فأنفذ حملة أكثرها مـن البربر .. » وهذا كلام مرفوض ، فموسى بن نصير لم يميز بين العرب والبربر ، ولكن قلة العرب في شمال افريقية عند الفتح مباشرة بالنسبة الى أهلها ، جعل قسماً كبيراً من الجند من البربر، ودليل تقدير موسى لكل كفاءة بغض النظر عن جنس صاحبها أو عِرْقه ، تعيين طارق بن زياد ، وهو بربري ، قائدا لجند المسلمين وفيهم آلاف العرب .

ومن المضحك ، قول « جرجي » في صفحة ١٤ : « امتهان العرب يومئذ لغير العرب ، ولو كانوا مسلمين » ، فإذا فتشنا عن مرجع أو مصدر هذا الكلام لوجدناه « تاريخ التمدن الاسلامي » الذي هو من تأليف « جرجي » نفسه ، وأشار في نفس الصفحة على أن المرجع كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » ، « فجرجي » يوردأحكاماً ، وشواهد هذه الأحكام، ومصادر هذه الدرر ، كتابه

---

(١) الملاحظات التي ندونها هنا ليست كل ما يقال ، أو يكتب ، أو ينتقد به « جرجي » في روايته « شارل وعبد الرحمن » ، سندون أهم النقاط ونترك الحديث المفصل الى كتابنا الذي نعده عن « جرجي » ورواياته .

الذي قدّمه قبل هذه الروايات « تاريخ التمدن الاسلامي » ، وقد كرر هذا في ثلاثة مواضع في الصفحات : ١٤ ، ٤٢ ، ٤٩ .

٢ ــ يخلط « جرجي » على عادته بين كلمة عرب ، وبربر ، ومسلمين ، في كل صفحات الكتاب ، ومثال ذلك صفحة : ٧ ، قوله : «ولم يذهب من فكر العرب فتح أوربة»، وكلمة «مسلمين» هنا أصح تاريخياً من كلمة « عرب » ، فالعرب ما فكروا بتحرير أنفسهم من الفرس والرومان ، إلا بعد عقيدة ربانية غُرست في نفوسهم فغيَّرتهم ، ووحدت صفوفهم ، وجمعتهم على قلب رجل واحد ، العرب ما أخذوا مكانتهم اللائقة تحت الشمس ، إلا بعد أن أهلهم رسول الله ﷺ ، روحياً ، وفكرياً لفتح الدنيا .

٣ ــ في صفحة ٨ ، يركز « جرجي » على اغتصاب المسلمين للكنائس ، وجعل المرجع لهذا « رينو عن أيزيدور » ويستمر في ذلك الى نهاية الرواية ، مع أنه يورد في الصفحات : ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٦٨ ما يناقض هذا على لسان سالمة أم مريم ، ولقد ذكرنا في هذا الكتاب أنه إن كان المسلمون قد داهموا ديراً أو كنيسة في سهول فرنسة ، فذلك لايقاف المقاومة المنطلقة منه ، فقدكانت بعض الأديرة والكنائس حصوناً للمقاومة ، واعترف « جرجي » بذلك في صفحة : ١٦٤ .

٤ ــ قال « جرجي » في صفحة ٩ : « وكان عبد الرحمن قد أدرك اختلال أمورهم ، أو جاءه البشير بذلك ، فعزم على فتح بلادهم » ، وهذا كلام مرفوض ، لأن الفتح الاسلامي خطة مدروسة ذكرها « جرجي » أيضا في صفحة ٦ : « وقد عزم على

مواصلة الفتح في بلاد أوربة حتى يعود الى الشام من طريق القسطنطينية » ، فالفتح قائم مخطط له ، ولو لم تختل أمورهم ، وقد كرر ذلك في صفحة : ١٩٦ ، وركّز على ما سماه « جشع المسلمين » صفحة : ٣٢٣ .

٥ ـ جعل « جرجي » في صفحة ١٣ فصلا كاملا عن : [الغنائم والسبايا] عند المسلمين ، وبدلا من التصريح بأن الغنائم والسبايا إن وجدت ، هي معاملة بالمثل في عُرف ذلك العصر ، بدلا من التصريح بهذا ، أخذ يلمح أنها هدف وغاية ، وذكر أن أمراء الأندلس (صفحة ٣٦) معظمهم من أهل المطامع ، وقد كرر ذلك صفحة : ١٤٧ .

٦ ـ وجعل « جرجي » من الشخصيات الرئيسة في الرواية فتاة اسمها « مريم » وعلى عادته في كل رواية له ، جعل منها مثالا للجمال ، قال عنها : « فتاة لم ير الراؤون أجمل منها » صفحة ١٦ ، ناهيك عن كلمات الغرام في رواية تحمل شعار « تاريخ الاسلام ! » ، فلواعج الغرام ، التي يكررها في كل رواية له ، وردت هنا على سبيل المثال في الصفحات : ٣٠ ، ٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٣٨ ، وقتيل هواك ، وردت في الصفحات : ٩٠ ، ١٠٢ ، ٣٢٨ ، وهذه بعض المقاطع التي تدون تاريخ الاسلام ، كما يكتبه « جرجي » :

ـ في صفحة ١٧ : « أما الفتاة[1] فكانت واقفة بجانبها ، وعليها لباس أسود مثل لباسها ، وقد أسندت يدها الى كتف المرأة

---

(١) يصف هنا « مريم » عندما رآها هانيء ، وبمثل هذا الوصف يكتب تاريخ الاسلام !!!

•• وهي مكشوفة الزندين الى الكوع ، وقد التف زنداها التفافا بديعاً ، وكانت طويلة القامة على اعتدال ورشاقة ، وقد بدت غضة، في محياها الحياة والنشاط ، ويحسبها الرائي — أول الأمر — في الخامسة والعشرين ، وهي في الحقيقة دون العشرين، سمراء اللون، سوداء العينين ، كحلاء الجفون ، حادة البصر مع وداعة ورقة •• تدل وقفتها على الصحة والقوة معاً ، ويتجلى فوق ذلك كله لطف نسائي يسحر الألباب ، وكان ثوبها الأسود بسيطاً ، وقد انفتح الرداء من أعلى الصدر فبدا عنقها ، وفيه مظاهر الصحة والقوة بامتلائه واستدارته •• » •

— وفي صفحة ٢٣ : « ولكنه[١] كان مشتغل الخاطر بشيء لا يعرفه غير الذي يعانيه — وهو الحب — ومن غريب أمر الحب أنه يقع على الناس وقوع السبات من حيث لا يعلمون ، وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحـــدة ، فلا تكاد تلتقي العين بالعين حتى تجيش العواطف ، وتتجاذب القلوب تجاذبا لا سبيل الى دفعه ، ولا يحدث ذلك عند كل نظرة ، ولا في كل انسان ، وانما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب ، فاذا تفاهمت العينان ، استيقظ القلبان وتجاذبا كأنهما كانا على ميعاد ثم تاها » •

— وفي الصفحة ٣٠ : « خشي « هانيء » أن يكون في حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها « مريم » وقد ازداد تعلقاً بهـــا بعدما لاحظه من رغبتها فيه ، وأحس أنها تحبه حباً شديداً ، فاغتنم

---

(١) يعني هانئا ، عندما (جاش في فؤاده من عوامل الغرام ، وما غشي بصيرته من عواطف الشباب) عندما رأى مريم .

فرصة اشتغال الامير بالحديث مع المرأة ، ودنا من الفتاة وقد أراد أن يسمع حديثها ويستطلع أمرها ، فقال وصوته يدل على هيامه : « ما اسمك يا فتاة ؟ » ، فأجابته بصوت دل على لواعج الحب ، وبلسان عربي فصيح : « اسمي مريم » فأعجبته غنة صوتها ، وزاد افتتانه بها لثغة في لسانها تنطق بها الراء غيناً ، فكأنه سمعها تقول : « اسمي مغيم » .

ــ في الصفحة ٣٢ : « ونظر (هانىء) الى مريم ، فرأى عينيها الجذابتين وقد زادها التفكير والاطراق هيبة ، فسبح الخالق لذلك الصنع العجيب » .

ــ وفي الصفحة ٨٢ العجب العجاب في « روايات تاريخ الاسلام » :

« فأعجبه ذلك العتاب واستدل من ورائه على ماله من المنزلة ، عند تلك الحورية ربة الجمال ، وقد كان يعلم أن بينه وبينها فارقاً كبيرا ، ولكنه كان يطمع في حبها .. وكان يقنعه من ذلك الحب أن يسمع مثل تلك العبارة ، فهو ممن يسمونهم « أذناب العشاق » لأن العشاق ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذي يملأ القلبين ، وعويشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته باقة من الأزهار أو عقداً من الجوهر ، ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له فيما وراء ذلك ، و « ذنب العشاق » وهمه أن يخدم معشوقته خدمة تروقها ، كايصال كتاب ، أو ابتياع بعض حاجات الطعام أو نحو ذلك » .

كل هذا في روايات تاريخ « الاسلام » فأين التاريخ ، وأين الاسلام ؟!؟

ـ ويطول الحديث عن « لواعج الغرام » في صفحة ٣٣٨ ، ونكتفي بما تقدم ، ونترك الشرح الوافي لكتابنا القادم إن شاء الله وهو « جرجي في الميزان » .

٧ ـ كرر « جرجي » كلمة « نهب » بحق المسلمين ، في الصفحات : ٢١ ، ٢٣ ، ٤٦ ، ٤٧... وفي هذا مايغني عن التعليق .

٨ ـ كما بالغ « جرجي » في اظهار البربر على أنهم يسعون الى الغنيمة ليس غير ، قال في صفحة ٣٨ : « أكثرهم جاؤوا للنهب والسلب ، وخصوصا البرابرة ومن على شاكلتهم، فهؤلاء لا يفهمون معنى الجهاد أو الفتح ، ولا يعرفون ماهو الاسلام ، لأنهم إنما انتموا إليه رغبة في الغنائم » .

وتراه يسمي البربر « البرابرة » في الصفحات : ٢٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ . وشتان بين المعنيين ، بين قبائل تسكن الأطلس والمغرب الأقصى ، وبين معنى « البرابرة » التي أطلقت على القبائل الهمجية التي جاءت أوربة فدمرتها ، وأبادت مدناً وقرى ، وفتكت بشعوب بأسرها ، وشمل أذاها الانسان والحيوان والنبات ، حتى الجماد متمثلا في هدم الآثار الرومانية أينما حلوا ، فَسُمِّيَت هذه القبائل لهمجيتها وبدائيتها ووحشيتها « البرابرة »وهم قبائل : الهون والجرمان والفندال ... فشتان بين المعنيين !!

٩ ـ عبد الرحمن الغافقي ، البطل المسلم ، الملتزم باسلامه ، والذي أوصل الاسلام الى قلب فرنسة ، جعل له « جرجي » في روايته « شارل وعبد الرحمن » [خباء من النساء] صفحة ٥٠ ، وذلك بدلا من اظهار مواهبه القيادية وتفانيه في نشر الاسلام ،

وهذا يعني نشر الاخاء والمساواة والحضارة الانسانية العالمية في كل معانيها ، كما جعله يهيم (في صفحة ٥٧) في حب فتاة ، وله قهرمانة مشرفة على خباء نسائه صفحة ٦٨ ، وكذلك صفحة ٧٤ ، حيث يجعل القهرمانة السيدة المتنفّذة ، تولي وتعزل حتى الخلفاء ، طبعاً دون ذكر أمثلة من التاريخ كعادته .

وفي الصفحتين ٧٤ و ٧٩ يجعل للامير هانيء خباء نساء أيضاً ، وهانيء هو الشخصية الثانية بعد الغافقي ، ثم يجعل لكل أمير « خباءه وجواريه » في الصفحات : ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ٢٦٥. وفي الصفحة : ٩٥ بالذات يجعل للقائد المسلم عبد الرحمن الغافقي [عشرات من النساء في خبائه] ، فهل هذه حقائق ؟

ومن منطلق الغيرة على هذا التاريخ المجيد ، والتراث الغالي نقول : احموا تاريخكم ، وسيجوا حوله بسياج متين ، فالعابثون به كثر ، والذين يهدفون الى تشويهه وراءهم قوى معادية لدينكم وتاريخكم وتراثكم وذاتيتكم ...

هل تسمح أمة من الأمم في هذه الدنيا ، ماضيا وحاضرا ، أن يقوم قلم ما — ومهما كان شأنه — بتشويه سيرة أبطالها ؟ فلماذا نحن بالذات هانت علينا أبطالنا ، حتى إننا كدنا نرى سيرتهم مشوهة ، بل صرنا نراها ممسوخة مفترى عليها ، مطموسة ملامحها الرائعة ، ثم لا نبالي !؟!

تاريخ الاسلام وحضارته ، العامل الاول لشعور العزة والكرامة في أمتنا ، لشعور الفكر الموحد ، والعقيدة المثلى التي فتحت نصف العالم في نصف قرن ، به سدنا ، وبه عرفنا بمكانتنا

السامية بين الأمم ، فلصالح من يتم التشويه ، وجعل تاريخنا سيرة جوار وغنائم وأخبية وقهرمانات ؟!؟

ألا فاحموا تاريخكم ، تحموا أمتكم من الضياع •

١٠ ـ يكرر « جرجي » في روايته العبارات التالية :

ظنَّت ، ودلَّها قلبها ، قالت في نفسها ، أحس ، تذكر في نفسه ، تصور ، فأسر في نفسه ، أضمرت ، لسان حالها يقول ، تبادر إلى ذهنه ، خيل إليه •• كما في الصفحات : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٧٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٣١٢ ، ٣١٣•• وبسبب هذا الخيال الخصب ، والفكر الثاقب ، تراه يقرأ ويكتب الأفكار ، وما يجول في نفوس الناس ، وما تشعر به قلوبهم ، لذلك فإنه يكتب رسائل متبادلة بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل لا أصل لها •

١١ ـ ذكر « جرجي » أن المسلمين أينما ساروا في فرنسة « غاليا » ، وجدوا قرى وبيوتاً أهلها تركوها ، كما في صفحة ١١٢، والثابت تاريخياً أن المسلمين لم يؤذوا ، ولم يصيبوا المدنيين بسوء مطلقاً ، فهجر البيوت وترك القرى صورة عرفتها أوربة عند مجيء الجرمان والهون والفندال ••، أولئك الذين حصدوا كل شيء في زحفهم ، أما المسلمون ، وباعتراف المؤرخين الاسبان مثلا ، ان بلادهم شهدت قمة مجدها ورقيها وتعلمها وإنسانيتها عند الفتح الاسلامي ، وكانت شعوب فرنسة تتمنى انتصار المسلمين ليصلوا الى ما وصلت اليه اسبانية من تقدم •

ولسوء طويّة « جرجي » ، فقد وصف المسلمين في صفحة ١١٣ ، بأنهم « ساروا كأنهم بحر يتلاطم بالأمواج » بينما الفرنجة « كثيرون » ، والثابت تاريخيا أن المسلمين كانوا سبعين ألفاً ، والفرنجة هم البحر المتلاطم بالأمواج ، فكأنه لا يريد التماس عذر لانسحاب المسلمين في بواتييه ، فهم بحر يتلاطم بالأمواج، وعدوهم أقل منهم عددا ، وذلك ليؤكد الفخر للفرنجة بالنصر .

١٢ ــ مسرح الرواية ، والقسم الأكبر من أحداثها في الأديرة، ويكرر تقبيل يد الرهبان للتبرك بهم ، ويذكر حقوقهم من الاحترام والتقديس ... كما في الصفحات : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٨٧ ، ٢٧٩ .. بينما ذكر القرآن العظيم مرة واحدة صفحة ٣٢٦ ، وكأنه كتاب عادي ، لا علاقة للفاتحين به ، فقال « قرآن » هكذا ، لا كريم ولا عظيم .. ومتى ذكره ؟ ذكر القرآن الكريم قُبَيل المعركة مباشرة ، لقد تُليت آياته ، ولم تغنِ المسلمين شيئاً ، فلم ينتصروا في بواتييه ، وفي هذا ما فيه من الدس لتحقير شأن القرآن المجيد ، وإظهار عدم جدواه في المواقف الصعبة .

١٣ ــ يقول « جرجي » في صفحة ١٦٢ : « إن امرأة شاهدت في الدير شاباً مجنوناً « سكنه شيطان » ، فسألت عن قصته فقال لها رئيس الدير : « اعلمي يا ابنتي أن هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تجندوا لمحاربة أولئك العرب، حين بلغهم إقدامهم على فتح هذه البلاد ، وكانت له والدة لا يعرف من الأهل سواها ، ولا هي ترجو سواه ، فتركها في بيتها وسار الى الحرب ، فاتفق في أثناء غيابه أن جاء المسلمون الى ذلك البلد ، ونهبوا بيت المرأة ، وساقوها في

جملة السبايا الى قلعتهم في تلك المنطقة ، فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه بما حدث لأمه ، ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق ، فأطل على القلعة وكانت موصدة ، فأشرف عليه أحد المسلمين من فوق السور وسأله عن غرضه ، فقال له : أطلب والدتي فانها أسيرة عندكم ، فأجابوه : لا نرد لك أمك إلا إذا أعطيتنا الجواد الذي تركبه ، وإلا فاننا نذبحها أمام عينيك ، فغضب ـ واسمه داتوس ـ لذلك غضبا شديدا ، وقال لهم : لا أعطيكم، وافعلوا بوالدتي ما تشاؤون ، قال ذلك وهو يظن أنهم يخوفونه بتهديده بقتلها ، وانهم لا ينوون اعدامها فعلا ، ولكنه مالبث أن رآهم احتزوا رأسها ورموه إليه وهم يقولون : هذه والدتك فإليك هي ، فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى رأسه ، وغاب عن رشده ، ولما عجز عن الوصول الى القاتلين لتحصنهم وراء الأسوار، جعل يلطم وجهه ويصفق ويبكي ويركض فرسه يمينا وشمالا كالمجنون ، ثم انقطع عن أصحابه وأقام عندنا » .

هذا ما أراده « جرجي » على لسان رئيس الدير ، فالحمد لله حصحص الحق ، إنها فرية ودسيسة ينفيها ، ويدحضها أخلاق المسلمين الفاتحين بالرحمة والانسانية[1] .

والملاحظ لمسار القصة يلمس كذبها بقرينة ودليل :

---

(١) قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد : « لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة .. » . هذه هي أخلاق الفاتحين المسلمين ، وهذا من دستور معاملتهم للشعوب ، لا كما يدعي ويتخيل « جرجي » على لسان راهبه رئيس الدير .

١ ــ المسلمون جاؤوا الى بلد ، ما اسمها ؟ أين تقع ؟ بلد مجهولة ؟.

٢ ــ كلمة « نهبوا » تدل على نفسية المؤلف الحاقدة على المسلمين .

٣ ــ عبارة « تلك المنطقة » تدل على الضياع ، ما اسم المنطقة ؟ لا يدري أحد حتى ولا « جرجي » ولا رئيس الدير .

٤ ــ المسلمون في « قلعة » خلف أسوارها ، هل للمسلمين قلاع أو حصون قرب بواتييه في أرض فرنسة !؟

٥ ــ وصل الجندي الافرنجي فأشرف عليه ــ من وراء الجدُر ــ جندي مسلم ، كيف أحس به ، ومن أعلمه بقدومه ؟ وبأي لغة تفاهما ؟ بالعربية ؟ أم بالفرنسية ؟ أم بواسطة ترجمان؟!؟

٦ ــ الجندي المسلم يطمع بالجواد ، يطمع بغنيمة ، هذه نذالة ، بينما الجندي الافرنجي شهم لا يعطي جواده ، فعليه سيحارب المسلمين ، وما الذي يمنع المسلمين من أن يخرجوا إليه، وهو في قلة مع رفاقه ليأخذوا الجواد وتبقى الأم أيضا معهم ؟!؟

٧ ــ أمُّ الجندي الافرنجي سبية بحسب قول « جرجي » على لسان « رئيس الدير » موجودة مع المسلمين ، لماذا يذبحونها إن لم يعطهم ابنها الجواد ، ماذا خسروا بعدم اعطائهم الجواد لتذبح وتعاقب !

٨ ــ اظهرت الدسيسة أن المسلمين أهل ظلم وعسف ووحشية ، واظهرت الجندي الافرنجي بالجرأة والحمية والغضب للحق ، والهياج للعدالة ، فهل هذا صحيح ؟

هذه ملاحظات ثمان ، تغنينا عن التعليق ، ففي النفس ألم ، وفي القلب غصة على تاريخنا المجيد كيف يشوه ، وعلى رجالاته كيف يُساء إليهم أمام أعيننا ونحن غير عابئين أو مبالين !

١٤ ـــ من الخطوط العامة للرواية :

هانىء (العربي) قائد الفرسان ـــ وهو شخصية خيالية ـــ أحب ربة الحسن والجمال والأنوثة مريم ، أو « مغيم » بحسب قول « جرجي » ، نافسه على حبها بسطام (البربري) ـــ وهو شخصية خيالية أيضاً ـــ فتقتل مريم بسطاماً لتتنعم بحبيبها هانىء (العربي) ، ثم ينافسه في حبها القائد العظيم عبد الرحمن الغافقي!! كما في الصفحات : ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ..

ويجعل (جرجي) لمباجة : [أدرى بجيش المسلمين من عبد الرحمن] هكذا أرادها ، وهي نصرانية تكيد للمسلمين ، وهي عندهم في معسكرهم لا يدرون طويتها ، كما في الصفحات : ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

لقد جعل «جرجي» التنافس بين العرب والبربر يمثله التنافس بين هانىء وبسطام ، ثم جعل الغافقي يخفق قلبه لفتاة ، فتشغله عن أمور الفتح والجيش كله .

وكل هذا مغالطات غنية عن التعليق .

١٥ ـــ يقول « جرجي » في نهاية الرواية ، فرّ الجيش المسلم من المعركة ، فبينما الشخصيتان الخياليتان هانىء ومريم لم يفرا ، لا يليق بهما ذلك ، فقررا الموت معاً طواعية : « الموت معك حياة

يا حبيبي •• يا حبيبي •• آه ما ألذ هذا اللفظ ، وكم كنت أتلذذ بتكراره فيخلوتي، وأتحسر علىسماعهمن فمك» ، (صفحة:٣٤٢)•

لقد عزما على النزول في البحر ليغرقا ، ويصبحا طعاماً للأسماك ، ولكن هانئاً لما فرغت مريم من قولها أشار بعينيه الى جسمها الغض ، وقال لها : « أليس غبناً أن تذهب هذه الأعضاء طعاماً لأسماك البحر ؟ فقطعت كلامه قائلة : ذلك خير لها من أن يفترسها وحوش البر الذين يسمون أنفسهم بني الإنسان •• عجل ياهانىء قبل أنيغلب علينا حب البقاء •• » ، [صفحة : ٣٤٣]•

« فمد يديه ومدت يديها ، وتخاصرا من جانب ، وتماسكا من الجانب الآخر •• ومشيا على الرمل حتى غرقت أقدامهما في الماء ، فأحسا ببرده وبانزلاق الرمل تحت الأخمصين ، وكانا كلما انغمرا في الماء ازدادا تعانقاً وازدادا تجاذباً حتى أصبحا جسماً واحداً ، وغطسا في الماء وكل منهما يتلذذ بذكر اسم الآخر ، وبعد دقيقة بدا بعض الرأسين ، والشعر سابح على سطح الماء ، ثم غطسا إلى قاع النهر، ولميعد يعلممصيرهما إلا الله•• »، [صفحة:٣٤٣]•

غريب عجيب •• شخصان غرقا الى قاع النهر « ولم يعد يعلم مصيرهما إلا الله » ؟! ومع قناعتنا بكذب الرواية كلها ، القناعة الكاملة ، فنحن نناقش ما ورد كرواية بين يدي الناس ، فنقول تعليقا على نهاية وختام الرواية كما جعلها « جرجي » :

كل قارىء مهما كانت ثقافته يعلم مصيرهما ، « غطسا الى قاع النهر » ما هو الاحتمال الثاني غير الموت بعد الغرق والانتحار؟! أبمثل هذه الغراميات والترهات يكتب تاريخ الاسلام ؟!

في حادثة انتحار هانيء ومريم مغالطة واضحة ، فإن الثابت علميا أن المنتحر يقدم على الانتحار ، ولكنه عندما يشعر بالألم أو بالخطر المحتم فانه يستنجد ويحاول التخلص مما أقدم عليه ، فعجباً كيف مضى الاثنان متخاصرين الى حتفهما ؟ إنهــا الروح الروائية التي تعبث بكل القيم •

إن فكرة الانتحار نفسها ما هي إلا من اختراع الكاتب ليقرر فكرة ضعف الايمان عند هانيء والعرب بشكل عام ، فإذا أثبت هذا الأمر كحقيقة واقعة أثبت بطلان فكرة الجهاد والفتح لغايــة انسانية شريفة ، ليقنعنا أن الفاتحين ما قاموا إلا في سبيل السلب والنهب ، ويظهر ذلك إجلاله لأطراف الرواية الأخرى مثل شارل وأودو ••

★ بعد هذه المناقشة لرواية « جرجي زيدان » : (شارل وعبد الرحمن) والتي هي جزء من مثيلاتها في سلسلة : (روايات تاريخ الاسلام) ، نقول والله يشهد الاخلاص في القول : « إن الأمة التي تريد البقاء ، تحمي تاريخها بسياج متين من الحراسة »، نقولها مخلصين ، علّ يداً مسؤولة تُطَهِّر هذا التاريخ من الدس والتشويه ، نقولها لعل قلباً غيوراً يدفعه نوره الى حماية الجيل من افتراءات المدلّسين :

« **لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية** » ، الحاقة : ١٢ •

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً •

* * *

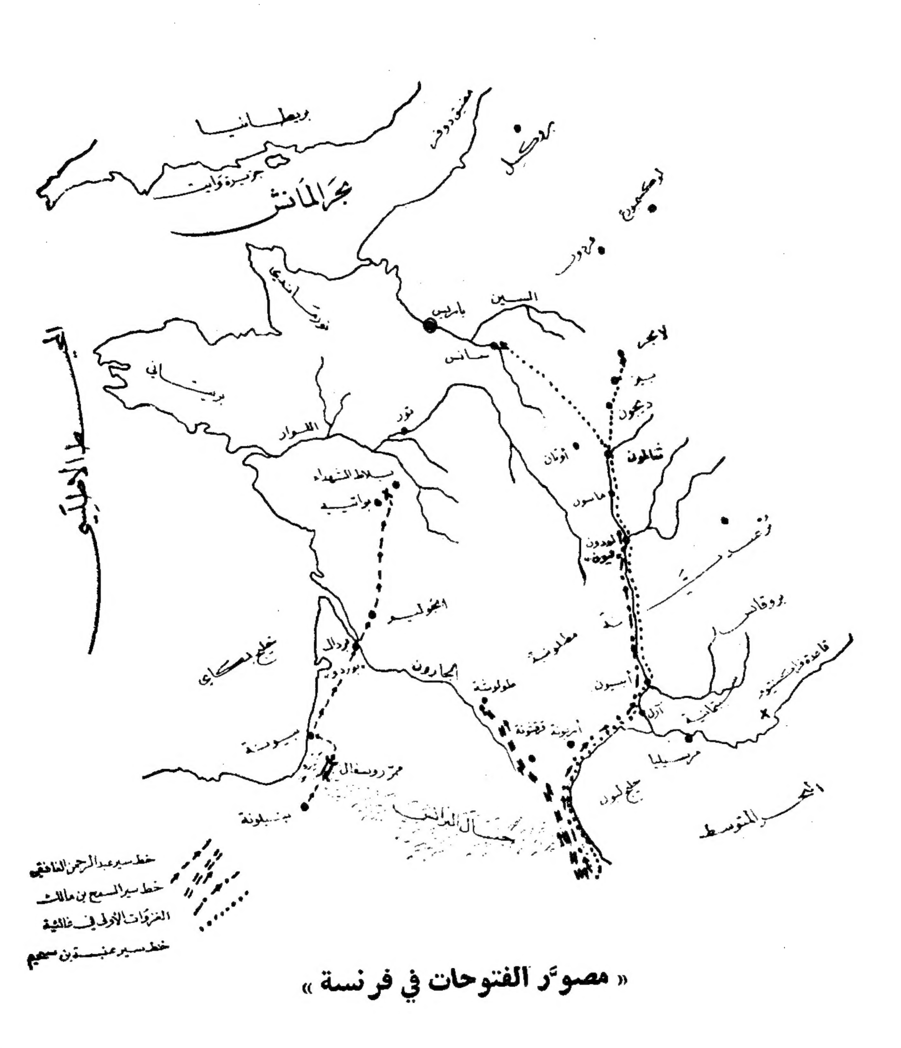
ولاة الأندلس

من الفتح عام : ٩٢ هـ حتى وصول عبد الرحمن بن معاوية « الداخل » عام : ١٣٨ هـ(١) .

- طارق بن زياد ٩٢ هـ
- أبو عبد الرحمن موسى بن نصير ٩٤ هـ
- عبد العزيز بن موسى أواخر سنة ٩٥ هـ
- أيوب بن حبيب اللخمي ٩٧ هـ
- الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي ٩٨ هـ
- السمح بن مالك الخولاني رمضان ١٠٠ هـ
- **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي** « المرة الأولى » ١٠٢ هـ
- عنبسة بن سُحَيم الكلبي ١٠٥ هـ
- عذرة بن عبد الله الفهري ١٠٧ هـ
- يحيى بن سَلَمة الكلبي شوال ١٠٧ هـ
- حذيفة بن الأحوض الأشجعي « حكم ستة أشهر » ١١٠ هـ
- عثمان بن أبي نسعَه الخثعمي شعبان ١١٠ هـ
- الهيثم بن عبيد الكناني المحرم ١١١ هـ
- محمد بن عبد الملك الأشجعي « شهران » ١١٢ هـ
- **عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي** « للمرة الثانية » ١١٢ هـ
- عبد الملك بن قَطَن بن نفيل بن عبد الله الفهري ١١٤ هـ
- عقبة بن الحجاج السّلولي القيسي ١١٦ هـ
- عبد الملك بن قطن الفهري « للمرة الثانية » ١٢٢ هـ
- بَلج بن بشر القشيري ١٢٣ هـ
- ثعلبة بن سلامة العاملي ١٢٤ هـ
- الحسام بن ضرار الكلبي أبو الخطّار رجب ١٢٥ هـ
- يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهري ١٣٠ هـ
- وصل عبد الرحمن بن معاوية الى بلاد الأندلس ١٣٨ هـ

---

(١) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، لزامباور ، مطبعة جامعة فؤاد الاول عام : ١٩٥١ ، صفحة : ٨٥ .



« مصوّر الفتوحات في فرنسة »

المحتوى

للمؤلف

١ ـ الإسلام في قفص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)
٢ ـ مَنْ ضيّع القرآن ؟
٣ ـ الإنسان بين العلم والدين
٤ ـ هارون الرشيد
٥ ـ غريزة .. أم تقدير إلهي ؟
٦ ـ آراء يهدمها الإسلام
٧ ـ الإسلام وحركات التحرر العربية
٨ ـ عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي
٩ ـ الهجرة « حدث غيّر مجرى التاريخ »
١٠ ـ جرجي زيدان في الميزان

سلسلة «المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

١ ـ القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص
٢ ـ اليرموك بقيادة خالد بن الوليد
٣ ـ نهاوند بقيادة النعمان بن مقرّن المزني
٤ ـ ذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
٥ ـ فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد
٦ ـ بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي
٧ ـ فتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات
٨ ـ الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين
٩ ـ الأرك بقيادة المنصور يعقوب الموحّدي
١٠ ـ العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحّدي
١١ ـ مصرع غرناطة « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر »

غزوات الرسول الأعظم

بَدر الكبرَى	:	رمضان ٢ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٤م
غزوَة أُحُد	:	شوال ٣هـ ـ كانون الثاني ٦٢٥م
غزوَة الخندق	:	شوّال ٥هـ ـ شباط ٦٢٧م
صلح الحديبيَة	:	ذي القعدة ٦ هـ ـ شباط ٦٢٨م
غزوة خَيبَر	:	المحرّم ٧هـ ـ آب ٦٢٨م
غزوة مؤتة	:	جمادى الأولى ٨هـ ـ إيلول ٦٢٩م
فتح مكة	:	رمضان ٨هـ ـ كانون الثاني ٦٣٠م
حُنَين والطائف	:	شوّال ٨هـ ـ شباط ٦٣٠م
غزوة تَبُوك	:	رجب ٩هـ ـ تشرين الأول ٦٣٠م
«حُروبُ الرِّدَّةِ»	:	«في خلافة الصّديق سنة ١١هـ»